

إيهام بالفرق
رواية
حسن عبد راضي



الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة
موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق
٢٠٠٣م - ٢٠١٧م

الإشراف العام:
اللجنة العليا موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق
مركز بيئة للأمن الفكري والثقافي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
()

البريد الإلكتروني:
www.baina.com

العراق: كربلاء المقدسة
الطبعة الأولى ١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

حقوق النشر محفوظة للأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

التصميم والإخراج الفني:
عمار محمد العقابي
عماد محمد البيرماني

إيهام بالغرق

رواية

حسن عبد راضي

إشارة

ينهار الجدار الرابع بين المسرح والجمهور أحياناً، ويحدث أن يتبادلا المواقع، يحدث أن تصبح الحقيقة خيلاً أو الخيال حقيقة، في الحنظل الذي تجرعناه طوال العقود الماضية، ثمة فانتازيا غريبة، كنا نعيش كالأشجار ونموت مثلها أيضاً، وكان الشر يأتينا من فؤوس صنعناها وفؤوس أخرى صنعها غيرنا لقتلنا، لكننا نتصر دوماً حتى حين نموت.

في هذه الرواية أحداث وأسماء حقيقية وأخرى من نسج خيال الكاتب، لكنها جميعاً تروي حكاية فينيق البلاد، الذي ينبعث من رماده كل مرة نافضاً موته هائلاً بقاتليه، ها هنا حكاية نفق الموت الذي أدخلونا إليه عنوةً فخرجنا منه وهاماتنا أعلى من النجوم رفعة، ها هنا حكاية مدنٍ أجمعوا أمرهم على استعبادها فطردتهم شر طردة وأهانت سلاحهم وجموعهم وعقيدتهم المتوحشة، فطوبى لرجال ونساء وأطفال صنعوا بدمائهم حريةً وكرامةً وحياءً.

المؤلف

ملائكة وشياطين

مرعبٌ أن تكون ذا بصيرة حين تكون القلوب قد عميت أو أصابها رمد، أو عدا عليها قطران الأطماع والتغالب والإثرة، فلم تعد ترى الناس والأشياء والحدائق إلا باللون الأسود. ومرير شعورك بالعجز عن الابتسام ناهيك عن الضحك، وأنت ترى بلادك أرملة تشيح بالأحزان والفواجع، تخرج من بيتك فيتلففك نفق مظلم من الهواجس والعيون التي تترصدك علك تغفل لحظة فتفترسك كائنات لا عهد لك بها، كأنك في غابة من العصر الجوراسي، وتساءل نفسك والبشر والأشجار والهواء: مَنْ الذي غيركم جميعاً هكذا؟ وَمَنْ الذي نزع عنكم فطرتكم البريئة؟ كيف أصبح الخوف والريبة بكل شيء ناموس الحياة؟ كأن السماء تمطرنا أسئلة موجعة كسكاكين باشطة تحز الوجدان وتجرح الروح.

استيقظت نهلة على وقع طرق شديد على الباب في وقت متأخر من الليل، نظرت إلى الساعة الجدارية فوجدتها تشير إلى الثالثة فجراً، خيراً يا ربي يا ستار، نهضت متثاقلة ومتوجسة:

منو؟

افتحي يا بنتي، أنا الحاجة مديحة أم علي جان.

حاولت نهلة أن تتذكر الاسم فلم تُفلح، لكنها فوّضت أمرها إلى الله وفتحت الباب جزئياً ونظرت، فرأت امرأة مسنة ومعها امرأة أخرى شابة تتكى عليها ترديان -كالعادة في تلعفر- العباءة العراقية السوداء التقليدية، قالت الحاجة مديحة:

سلام عليكم يا ابنتي، هذه كنتي فاطمة زوجة ولدي علي جان (وأشارت إلى رجل كان يقف على بعد أمتار قليلة) وهي حامل وقد جاءها الطلق، وليس لنا سواك بعد الله.

نظرت نهلة إلى السيدتين، لكنها ما تزال متوجسة، قالت للعجوز:

أريني بطنها.

أزاحت العجوز العباءة عن بطن كنتها، فظهر لها أنها حامل فعلاً، فاطمأنت قليلاً، ودعتها للدخول، وأغلقت الباب وأجلستهما على أريكة في غرفة المعيشة، ثم توجهت إلى العجوز بالحديث:

لم تأخذها إلى أم فاطمة الجدّة؟ منزلها قريب من هنا؟

لأن كنتي هذه لا يثبت في بطنها حمل، قالت طبيبتها إن الحل الوحيد لها هو أن تعمل لها ربط عنق الرحم، وعملنا لها العملية، وهي الآن في شهرها التاسع وقد بدأت عندها آلام الطلق، مررنا على الجدّة لكنها اعتذرت وقالت إن الأمر يحتاج إلى طبيبة نسائية.

والله يا حاجة أنا لستُ طبيبة نسائية، بل لست طبيبة أصلاً، أنا صيدلانية، وصحيح أنني تعلمت التوليد بالخبرة والمخالطة، لكن هذه الولادة تحتاج عملية إزالة خيوط الربط قبل التوليد، ولا يمكنني إجراؤها هنا فليس لدي أية معدات

لكنك تعلمين يا ابنتي، نحن لا نستطيع أن نقلها إلى مستشفى تلغرف فهو تحت سيطرة الإرهابيين، ولا إلى الموصل إذ لا يمكننا الوصول إليه، فماذا نفعل؟ حاولوا أن تذهبوا إلى مستشفى سنجار، لعلكم هناك تجدون طبيبة تسعفكم، اعتذر أنا أريد بشدة أن أساعدكم وأسعف هذه المسكينة، ولكنني لا أستطيع، ولا أملك الأدوات اللازمة لا هنا في البيت ولا حتى في المركز الصحي.

كانت قد اعتادت على أن يَطرَقَ بابها في وقت متأخر من الليل أناسٌ يحتاجون إلى رعاية طبية عاجلة، أو إلى إجراء طبي طارئ، فهذا القسم من المدينة صار منذ أشهر يعتمد اعتماداً كلياً على مركز الشهيد الصدر الذي تديره الصيدلانية نهلة حسين الهبائي، يأتي بعضهم وهو يعاني من ارتفاع شديد في ضغط الدم فتقيس له ضغطه وتسقيه كثيراً من الماء مع حبة مدرر وتنصحه بالحمية من الملح والأطعمة التي ترفع الضغط، أو يأتي والدان ملهوفان يجملان صيباً مكسور الذراع يلوع من الألم، فتحاول أن تثبت يده إذا كان الكسر مضاعفاً ريثما يأتيها في اليوم التالي في المركز، وإذا كان الكسر بسيطاً فإنها تعيد العظم إلى مكانه وتثبته بعصا خشبية مستخدمة لا الشاش الطبي العادي ولا الخاص بالكسور لأنها غير متوفرين لديها، بل ما تيسر لديها من خرق وثياب قديمة تصنع منها شرائط ولفافات، تأتيها أصناف من الناس بأنواع شتى من المواجه والشكايات، ولم ينزعج والدها يوماً، لأنه يرى أن ما تفعله نهلة واجب إنساني أكثر منه واجباً وظيفياً، لأنها تُسعف الناس وتخفف آلامهم، وهو أمر عظيم الجزاء عند الله، هكذا كان يقول دائماً.

لكن هذه هي المرة الأولى التي شعرت فيها نهلة أنها عاجزة بلا حول ولا قوة، شعورها القسري بالذنب جعلها تذهب إلى والدها وتوظفه في غير أوان يقظته المعتادة

قبيل أذان الفجر، روت له ما حدث بعينين دامعتين، ثم أردفت بحرقة:

أندري يا أبي ليس عجزي عن إسعاف هذه السيدة الحامل وحده سبب شعوري بالتعاسة، بل لقد علمتُ اليوم أن الدواعش يأخذون الشباب الذين يأسرونهم إلى مستشفى الموصل أو أي مستشفى آخر يقع تحت سيطرتهم، ويُجرون لهم عمليات استئصال لأعضائهم الحيوية كالكلبي وغيرها ليعطوها لجرحاهم الذين تضررت أعضاؤهم، ثم يتركون الشاب الذي أخذوا أعضائه يموت، إن هذا أكثر من طاقة أي إنسان على الاحتمال!

احتضنها مرتباً على كتفيها، وهو يبسمل ويحوقل، قال لها:

كلنا نتألم لذلك يا ابنتي، لقد ابتيلنا بهؤلاء المجرمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، لكن لا ينبغي أن تشعري بالذنب أبداً، أنت تؤدين مهاماً جلييلة في حدود قدراتك وقدرات مركزك الصحي المتواضع، يقول الله تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون).

ضحى اليوم التالي، في حدود الساعة الحادية عشرة صباحاً جاء الخبر إلى مركز الشهيد الصدر في تلعفر الذي تعمل فيه نهلة أن القوات الأمنية عثرت صباح اليوم على جثث رجل وامرأتين إحداهما حامل على الطريق بين تلعفر وسنجار، وعندما سمعت نهلة بالخبر الفاجع أغلقت باب غرفتها الصغيرة عليها وانفجرت ببكاء مرير وموجوع، وسمعتها زملاؤها وهي تصرخ:

لو كان لدي عددٌ كافية، لما تركتهم يذهبون.

خبز الدم

أحد أسوأ الكوابيس يجثم على صدرها حين لا تستطيع إسعاف مريض أو نجدة إنسان يقصدها، ولذلك لم يكن يخطر ببالها أن تعيش ذلك النوع الآخر من الكوابيس يوماً ما، ولا فكرت أنها قد تحمل تلك الأمانة الثقيلة التي لا يستطيع أشداء الرجال احتمالها، كانت حياتها هادئة نسبياً ومكتفية إلى حد ما حتى ذلك الوقت، رغم أنها عبرت بحاراً من الفجائع السابقة ابتداءً من عام ٢٠٠٣ وما تلاه من عنف طائفي استهدف أهلها الشيعة التركمان والشبك في مدنهم وقراهم وقصباتهم التي تنتشر في الشمال، حيث يمثلون هناك أقلية في ديموغرافيا الموصل وما حولها من الأقضية والنواحي.

ويوم التقاها بيشوي أول مرة في مركز الشهيد الصدر، لم يكن يعلم هو أيضاً أن مصيره سيكون يوماً ما بين يديها، سألتها في سياق حوارهِ الصحفي معها:

ما هذا المركز وما الخدمات التي يستطيع تقديمها للناس؟

ردت عليه بإيجاز:

هذا المركز الصغير استُحدث ليلبي حاجات الناس الطبية في المناطق الشيعية من تلعفر، بعدما سيطر الإرهابيون على الجانب الآخر بما في ذلك المستشفى الوحيد الواقع في حي القادسية.

ألا يستطيع مريض من هذه الأحياء أن يقصد المستشفى العام؟

كلا إطلاقاً، المستشفى تحت قبضة الإرهابيين هناك، والوصول إليه مستحيل، وعلى فرض أنك وصلت، فتيقن أنك ستُعامل هناك على وفق هويتك الطائفية والدينية، إذا كنت شيعياً أو مسيحياً أو إيزيداً فسُقتل على الأرجح.

ولأنها صيدلانية متخرجة من كلية الصيدلة، وقبل ذلك كان لديها دبلوم صيدلة من المعهد الطبي الفني، فقد كانت انكليزيتها جيدة على نحو أتاح له أن يقابلها في منطقة لغوية تتوسط المسافة بينهما، فهو إيطالي والانكليزية ليست لغته الأم لكنه يجيدها، وهي تركمانية عراقية والانكليزية ليست لغتها الأم أيضاً، كما أن مترجمه المحترف ليس متاحاً في كل الأوقات، ولذلك فقد خاضا، كلما سنحت الفرصة أن يلتقيا، في حوارات مختلفة تنقلها فيها بين السياسة والوضع الأمني والتوقعات لمستقبل العراق، وعرجا حتماً على المعاناة من النقص الشديد في المواد الطبية كالأدوية والأجهزة، وقلة الكادر وشحة الوقود للمولدات ولسيارات الإسعاف، وقد أيقن أنها كانت صادقة ومخلصة في رسالتها المهنية والإنسانية، لأنه كان يزورها يومياً، وشاهدها بعد ذلك بأيام وهي تسعف الجرحى الذين جيء بهم إلى ذلك المركز المجهري، وكانوا بالمئات، وكان الذعر والرعب يخيمان على المدينة كمظلتين عملاقتين من نار وشواظ، لأن صوت الانفجار وشظاياها كانت قد وصلت إلى مسافات بعيدة

عن الموقع المستهدف، مثل رسائل شيطانية يراد لها أن تنشر الموت للأجساد والأرواح معاً، فجرحت أناساً وقتلت آخرين لم يكونوا قريين حتى من موقع الحادث.

ولعل بسالتها تلك وروحها المكافح الذي يشبه روح بحار لا يستسلم لأعتى العواصف، هما ما شجّع «بيتر بيشوي» على أن يتواصل معها في كل ما يخص معاناة الناس هنا، واحتياجاتهم الطبية، وقصص موتهم وحياتهم التي تعيشها هي على نحو يومي، فعمل تقريراً صحفياً عنها، روى فيه كيف تستمر صيدلانية جصور في عملها مع ما تعانيه هي ومركزها ومدينتها من نقص الأدوية وغياب الأمن وانعدام الموارد، وكيف تؤدي وظائف شتى غير وظيفتها الأصلية، كوظيفة الطبيبة والممرضة ومديرة المركز الطبي، ووسم تقريره بهذا العنوان: «الملاك الحارس في تلعفر».

وفي ذلك الصباح الذي كان هادئاً ككل الصباحات السابقة، كان قد مرّ على «بي بي» كما يجب بيشوي أن يسمي نفسه اختصاراً، خمسة أيام في المدينة، ورغم أنه كان يحتاج إلى الإقامة في تلعفر بعض الوقت، فإن خمسة أيام بدت مدة طويلة، وما زال عليه الاطلاع على حال الإيزيديين في جبل سنجار ومحيطه، لكن أخباراً متواترة عن جيوب متحركة وحواجز مفاجئة يقيمها إرهابيو داعش في بعض المناطق جعلته يترى في الانتقال من تلعفر، ريثما تتبين جلية الأمر. وكالعادة خصص له الجيش مكاناً مناسباً للسكنى بحيث يظل تحت عيونهم وحمايتهم، بعد أن طاف في نواحي سهل نينوى وقراها المنتشرة في برطلة وبعشيقة وتلكيف وقره قوش وكرمليس وغيرها من المناطق، ملاحقاً فيها حياة الأقليات من الشيعة الشبك والتركمان أو الإيزيديين والمسيحيين، الذين يعيشون وسط محيطٍ معادٍ، أو في أحسن الأحوال غير أليف، مدوناً كل ذلك في دفتر ملاحظاته الذي لا يفارق يديه.

كان الناس في تلعفر قد أنهكهم الجوع والحصار، فهم لا يستطيعون الذهاب إلى الموصل ولا حتى إلى الجانب الآخر من تلعفر الذي يشمل أحياء «حسن كوي والسراي والقادسية» ولم يكن ثمة عمل في المدينة، والأرزاق مقطوعة، وكان الناس يتنفسون القنوط والخوف في الهواء، وتتساقط عليهم قذائف الهاون كل يوم تقريباً، محاصرين في أحيائهم الضيقة، وعيونهم ترنو إلى رحمة الله الواسعة، لكن حتى أحلامهم لم تستطع أن تعبر بهم خارج دائرة الرعب تلك، وكانت قصارى أمنياتهم أن يعيشوا يومهم بسلام، ولا بأس في أن يقتّر الآباء والأمهات على أنفسهم وأن يأكلوا وجبة واحدة في اليوم، وأن يكتفوا بالمهلل والقديم من الثياب، على أن يبيت أطفالهم طاعمين كاسين! وفي أثناء ذلك كله دخلت شاحنة لوري محملة بالطحين، وتمركزت في شارع عريض نسبياً، قيل إنها مساعدات إنسانية، فتجمع عليها أناس كثيرون، فقد بدت لهم تلك الشاحنة هدية من السماء، رأوا فيها غوثاً من شبح الجوع الذي يقف لهم على أبواب بيوتهم كاشفاً عن أنيابه، لكنها لم تكن كذلك في الحقيقة، بل كانت هدية من سدنة الموت والخراب والدم، أو الزومبي كما كانت نهلة تسميهم، لأنها كانت ترى أنهم وحوش افترس عيونهم فايروس العمى الطائفي، وأصبحوا يتغذون على الدماء ويتلذذون بطعمها.

لقد فسخوا الخبز، فأبيّ عقيدة وحشية منحرفة (كانت تصرخ أحياناً، وتسأل ولا تنتظر إجابة من أحد) وأبيّ مسوخ أولئك الذين يفخخون نعمة الله التي يقدها كلُّ الناس؟

سألها بيثوي عندما وجدها قد نفثت من صدرها ألماً صرفاً في تلك العبارة:

هل تقدسون الخبز؟

نحن المسلمون نقدّس كل نَعَم الله، لكنّ للخبز منزلة خاصة، لا أحد يجروء على إلقاء الخبز على الأرض أو في القمامة، وإذا حدث ووجدناه على الأرض فإننا نقبله ونضعه على جباهنا في طقس اعتذاري غير مكتوب وغير منصوص عليه، لكنه شائع لدى المسلمين بطوائفهم كافة، تلك علامة على مكانته الخاصة في وجداننا الديني شأنه شأن مقدساتنا الأخرى، وأنتم المسيحيون أستم تبجلونه أيضاً لأنكم ترون أنه جسد السيد المسيح عليه السلام، هكذا قرأت، وهكذا سمعت من صديقاتي المسيحيات.

بلى.. بلى، كلام سليم.

حين فَجَّر الدواعش الطحينَ على الناس المتجمعين هناك، تكونت سحابة سوداء يحيط بها شفق شديد الحمرة، اختلط فيه بياض الطحين بحمرة الدماء القانية، وتحت حرارة النار وقوة التفجير انخبزت آلاف الأرغفة المديفة بالدم والمأساة، وتطايرت في الفضاء مثل قرايين شيطانية، حملها العصف المروع وارتفع بها إلى السماء، ثم أعادتها الجاذبية مطراً مشؤوماً لا يسقي إلا المقابر، ولا يُشبع إلا بطون القتلة، شيءٌ كلعنة تطارد أرواح الضحايا التي حلقت إلى بارئها تشكو ظلم الأخوة في الدين قبل المغايرين، والجيران الأقربين قبل الأبعد، الذين لم يتورعوا عن التهام ذلك الخبز الدامي دون أن يرفّ لهم جفن.

لحظة دوى الانفجار كان يبشوي جالساً إلى طاولة صغيرة وضع عليها حاسوبه النقال وانشغل بإفراغ بعض الحوارات التي كان قد أجراها سلفاً في جولاته في الأيام الماضية، فتهاوت فوق رأسه مروحة السقف التي لم تكن تعمل حينها لحسن الحظ،

وانكفأت الخزانة الخشبية التي كان يضع فيها ثيابه وأغراضه الأخرى، وتساقط كل شيء كأنّ زلزالاً عنيفاً حدث، وانخلع قلبه من مكانه، إذ لم يسبق له أن سمع دويّاً كهذا، وامتلاّت غرفته بغبار العصف الذي خلخل أركان البيوت وجذوع الأشجار القليلة الباقية، وهزّ أعماق بيشوي و يقينياته، لقد جعله يلامس الموت، ويتحسس بشرته الخشنة المجدورة، في لحظة النهاية الخاطفة تلك رأى قيح النفوس البشرية الملأى بالكراهية، يسيل من آلاف الأفواه التي كانت تضحّ الكذب والتزوير والافتراء في منصات الإعلام ومجالس السياسة ومنابر المساجد، لكنه بعد أن تمالك نفسه من هول الصدمة واستعاد أنفاسه، وبعد أن كَفّت الشظايا عن السقوط على سقف غرفته وباحة السطح الذي تقع فيه، هرع إلى خارج الغرفة وتلفت باحثاً عن مكان الانفجار، فوجد الدخان ورائحة الشواء البشري يزكمان الفضاء الفسيح، ويجعلان التنفس عملية شاقة، شاهد على بعد خمسمائة متر تقريباً إلى الشمال أعمدة النيران وشكلاً يشبه نبات فطر عملاق من الدخان واللهب، عاد إلى غرفته، وبحث عن كاميرته فوجدها قد تدرجرت تحت سريره فحملها وعاد بها إلى السطح، إلتقط بعض الصور من هناك للسطح العملاق ودخل غرفته ثانية، قلب الخزانة على ظهرها واستخرج منها ثياباً مناسبة، ثم خرج قافراً درجات السلم تنتين تنتين، ومرّ مهرولاً قرب الدورية العسكرية المكلفة بمتابعة أمنه ولم يلتفت إليهم، وكانت شظايا حجارة وحصى ومعدن قد سقطت قربهم أو فوق سقف سيارتهم الهامفي، نادى عليه أحد الجنود محاولاً أن يستوقفه:

مستر.. وين رايح يمعود؟

لكنه اندفع لا يلوي على شيء باتجاه موقع التفجير، وعبرَ ثلاثة أزقة ثم انعطف

يميناً وكان الناس الذين يصادفهم يتراکضون في كل الاتجاهات وعيونهم مذعورة من كل شيء، لقد خذلهم الخبز مصدر الحياة المعشوق، فبمن وبماذا يثقون بعد ذلك؟ قبل أن يصل بيشوي إلى الموقع ببضع عشرات من الأمتار وجد رجلاً ملقى على وجهه داخل محل حلاقة، كانت إحدى قدميه مبتورة والدماء تتصبب من رأسه وكتفه، وقد انغرزت عشرات الشظايا الزجاجية في جسده، لم يعرف إذا كان الرجل حياً أم ميتاً، ولم يعرف ماذا يفعل؛ أيسعفه أم يتركه، لكنه حسم أمره وتحسس نبض الرجل من شريان رقبتة فوجده قد فارق الحياة، فغادره وتقدم مقترباً بحذر من موقع التفجير، فوجد أشلاء محترقة، وجثثاً متفحمة، ومنازل قد اقتلعت من أساسها.

يا إلهي، كأنها القيامة

حدّث نفسه، وهو يشاهد تلك التراجيديا المهولة العصية على الوصف، التي جعلت لسانه ينعقد حين وصل إلى موقع الانفجار، فقد وجد حفرة كبيرة تتوسط ما كان حياً سكنياً مكتظاً بالحياة وضحكات الأطفال وحَدَب الآباء وحنان الأمهات، كأنّ نيزكاً عملاقاً ضرب الأرض في ذلك الموضع، وكانت المنازل قد سوّيت بالأرض في دائرة قطرها مئات الأمتار، والنيران تتصاعد من كل شيء، من الحديد والناس والحجارة، ويتراکض هنا وهناك أناس محترقون أحياء من غير أي أمل في أن يطفئهم أحد، فمن لم تقتله الشظايا أو لم تحرقه النيران فقد أذهلته الصدمة فلا يكاد يدرك ما يحدث من حوله، في حين كانت جثث نساء وأطفال قد تمزقت، أو ظلت ناتئة من تحت الأنقاض وعيونها تحرق في العالم الخاوي من الرحمة، وتؤنب كل من ينظر إليها، كقصيدة رثاء ملأى بالعتاب والشكوى.

أما المشهد الأشد إفزاعاً وترويعاً، فكان حين وصل طفل عمره قرابة تسع سنوات إلى موقع الحادث وحقيته المدرسية معلقة على ظهره، كان ينظر بذهول وعينه تمسح المكان يميناً ويساراً، تجمع حوله بعض الناس ومنهم مردان المترجم المرافق لبيشوي، وسأله أحدهم:

ماذا تفعل هنا يا بُني؟ إذهب إلى بيتكم.

سكت الطفل واغرورقت عيناه بالدموع، قال له مردان:

هل تريد أن أوصلك إلى البيت يا عزيزي؟

فأجاب بصوت تخنقه العبرات والدموع:

أنا أبحث عن بيتنا هنا يا عم.

لقد تبخر بيت أسرة هذا الطفل، وأبيدات معه عائلته كلياً، كانت الصدمة أشد من قدرة بيشوي على الاحتمال، فشعر أن أحشائه تغلي، وبعد قليل تقياً وانهار مغشياً عليه.

استيقظ عصرًا على سريريه، وقد قاربت الساعة الخامسة، في البداية ظلت عيناه تراوحان في المنطقة البرزخية بين النوم واليقظة، لكنها انفتحتا على وسعها فجأة كما قد يفعل مجذوب تراوده رؤيا من الجحيم، تحامل على نفسه ونهض، كمن يكتشف العالم أول مرة، لا يدري من وضع له مروحة أرضية وجدها ساكنة لا تريم لأن الكهرباء مقطوعة، لكن يبدو أنها أسعفته بشيء من الهواء حين كان في غيبوبته، تحسس جسده ورأسه، ونظر حواليه:

أأنا أحلم؟ أم أن الكابوس الذي شاهدته كان حقيقياً؟ كيف عدتُ إلى غرفتي

هذه؟

كان الجنود قد لحقوا به، وحين وجدوه مغشياً عليه وكاميرته معلقة في عنقه، حملوه وعادوا به إلى غرفته ومددوه على سريره ليرتاح، ووضعوا له تلك المروحة الصغيرة.

بات ليلته تلك كالملدوغ، يستيقظ صارخاً ومتعرقاً في سريره كلما استغرق في إغفاءة قصيرة، كان يستعجل طلوع الصباح لكي يعود إلى المكان فيلتقط بعض الصور لتحقيقه الصحفي وليجد مَنْ يحدثه عن تلك المأساة.

الاختطاف

في التاسعة صباحاً ارتدى ثيابه وتأكد من اصطحاب كلِّ أشياءه الضرورية، علّق كاميرته على عنقه ووضع جهاز التسجيل الصوتي ودفتر الملاحظات والأقلام في جيوب الصدرية ذي اللون الكاكي الذي اعتاد الصحفيون أن يرتدوه، ثم توجه إلى صديقته نهلة في المركز الطبي ليعرف منها العدد الحقيقي للقتلى والجرحى، فتلك الأرقام مهمة في تقاريره الصحفية، في طريقه إلى هناك اتصل بمردان وطلب منه أن يوافيه بعد ساعة إلى موقع التفجير، حينما وصل إليها هياً جهاز تسجيله ودفتر ملاحظاته، فوجدها غارقة بين أكوام الجثث المقطعة المحترقة من جهة، وبين الجرحى الذين يئنون من الألم ولا تجد شيئاً تعالجهم به أو تهدئ آلامهم به بعد أن نفذت لديها المسكنات من جهةٍ أخرى، لكنها لم تقف مكتوفة الأيدي، بل راحت تُخيط جراح هذا بخيوط منزلية، وتُضمّد ذلك بما تيسر لها من خرق تعقمها بالكحول، وتحقن تلك المرأة ماءً مقطراً موهمة إياها أنه علاج سيفعل مفعوله قريباً، لأنها لم تكن تملك أدوية وعلاجات تكفي كل هؤلاء البشر. لقد نفذت مواردها الشحيحة أصلاً، لكن صبرها ونضالها ضد الموت لم ينفدا بعد، عرض عليها المساعدة، وقال لها:

لا أجد كلاماً يصف بطولتك وبسالتك.

شكراً سيد بيشوي، لستُ بطلّة، أنا أؤدي واجبي فقط، والآن، ما دمت قد بادرت بعرض المساعدة، هل لك أن تثبتّ معي هذا الرجل، أنا مضطرة الى أن أخيط جرحه من دون مخدر كما ترى.

وضع دفتر ملاحظاته على مكتب قريب، واستأذن نهلة في تصوير العملية فأذنت له وشدّدت عليه:

صور العملية إذا شئت، لكن لا تُظهر الوجوه أرجوك.

اطمئني، فأنا محترف وأعرف عملي مثلك تماماً.

ضبط الكاميرا المعلقة على صدره على وضع «الفيديو» وأمسك معها بيدي الرجل وجذعه العاري من الأعلى، بينما كان مساعدٌ آخر يمسك برجليه، وراقبها وصوّرها وهي تجمع ضفتي جرح عميق فاغر في خاصرته وتخيّطها إلى بعضهما بخيوط منزلية عمقتها بالكحول الطبي، وبدت له أثناء ذلك في حالة انقطاع تام، كصوفي في حالة وجد. تلطخت يدا بيشوي وأردان قميصه بالدم، فقصد حمام المركز، غسل يديه مراراً وفرك قميصه من آثار الدم، ثم حیی صديقتة الباسلة نهلة وغادر المركز وقد استقر في يقينه أنها تستحق أن تُلقب بالأم تيريزا العراقية، توجه فوراً نحو موقع الكارثة، فوجد الناس لا يزالون يبحثون عن مفقوديهم، وثمة متطوعون يحاولون إنقاذ من بقي حياً، وإخراج الجثث من تحت الركام، وجد المترجم مرداناً قد سبقه إلى هناك، وتحدث مع بعض الرجال، وسأل عن الطفل الذي فقد أسرته وبيته، فقبل له إن عائلة احتضنته وتعهّدت بتربيته كواحد من أبنائها، حاول أن يكتب

ملاحظة عن قصة الطفل، بحث عن دفتر ملاحظاته في جيوب الصدرية فلم يجده، وتذكر أنه تركه على أحد المكاتب في مركز الشهيد الصدر حين ساعد نهلة في خياطة جرح الرجل المصاب، لا بأس، لا بأس، قال لنفسه: سنستعيده حين ننتهي من هنا، عليّ أن استثمر الوقت في التقاط ما أستطيع من الصور وإجراء اللقاءات، وبينما كان منشغلاً بالتقاط الصور لمكان الحادث وللبقايا البشرية وللحي السكني الذي أُزيل بفعل العصف الهائل، صرخ أحد المسعفين:

أسمع أنيناً هنا، شخصٌ ما حيّ تحت الأنقاض .

كان في صوته المتهدج رجاء وأمل مذعور، تراكض بعض الشباب ونزلوا إلى الحفرة حيث يتجمع الحطام العظيم، تحول بيثوي بكاميرته نحو ذلك المشهد المأساوي، مشهد إنقاذ أسطوري لا بد من شهوده وتوثيقه، فالتقط عشرات الصور المتتابعة لذلك التكوين البشري الناهض رويداً من عمق الموت، خامره شعور أنه سيشهد قيامة تشبه قيامة (عازر) الذي أنهضه السيد المسيح من بين الأموات، فبداله عبر زوم الكاميرا كفضءٍ وجزءٍ معفر من وجه إنسان ظاهرين، لكن لم يكن واضحاً أهما لامرأة أم لرجل، التقط صوراً متتابعة كثيرة لعملية الإنقاذ، وتابع كيف أزاح الرجال كثيراً من التراب وقطع الحديد والأحجار، حتى تحررت اليد وظهر الوجه كاملاً، لقد كانت امرأة، وبعد جهد جهيد استطاعوا أن يزيحوا الركام الذي كان معظم جسدها عالقاً تحته، وحين بدأوا بسحبها أشارت إليهم أن ترفقوا، وهمست كلمة لأقرب الرجال إليها، فلم يسمعها جيداً، لكنها عادت وقالت له:

على مهلكم أخوتي.. لا أشعر بساقيي.. أظنها مقطوعتين.

هتفَ الرجل بزملائه:

ترفقوا بالأخت يا شباب، لا تسحبوها بقوة، انتبهوا لساقِها يرحمكم الله، تقول
إنهما مقطوعتان ربها.

وعند ذاك قفز بيشوي إلى داخل الحفرة وبدأ يشاركهم جهودهم في تحرير
السيدة، وقال للمترجم:

أخبرهم أنني مدرّب على الإسعافات الأولية في أوضاع الطوارئ ويمكنني
المساعدة.

عندما تحررت المرأة كلياً من تحت الأنقاض، بدا أن إحدى ساقِها قد بترت
من تحت الركبة، أما الأخرى فكانت مبتورة حتى النصف ومعلقة بالمفصل. كانت
حركات السيدة المقتصدة توحى بالحياة، لكن سحنتها العامة تشبه سحنات العائدين
من الموت، التراب والدماء يغطيانها كلياً، قال لهم بيشوي:

بما أننا لا نستطيع إنزال المحفة النقالة إلى هنا، اعطوني شرفاً أو بطانية ولنضع
السيدة فوقها، ثم لنمسك البطانية من كل الأطراف ونرفعها ونصعد بها إلى الأعلى
حتى تستوي السيدة فوق المحفة، والتفت إلى مردان: شدّد عليهم أن ينتبهوا لساقِها
المتبقية.

كانت مساعدته عظيمة النفع، لا سيما أن المرأة المسكينة كانت قد نزفت كثيراً
من جراح ساقِها وجراح أخرى في سائر أنحاء جسدها، وهي حتماً تعاني من كسور
في كثير من عظامها، وطريقة الإخلاء الصحيحة تُحدث فرقاً كبيراً في منع تفاقم

حالة المصاب، كان المسعف الذي نبّه الناس إليها هو نفسه سائق سيارة الإسعاف التي ستنقلها إلى مستشفى سنجار الوحيد المتاح لسكان الأحياء الشيعية في تلعفر؛ الكفاح الجنوبي وحي المعلمين وحي القلعة وحي النداء والعلوة والخضراء، ولم يكن مع السائق أيّ مساعدين، وبدا حائراً وخائفاً، فتطوّع بيثوي أن يرافقه في نقل المرأة وإسعافها حتى تصل إلى المستشفى غير عابئ بالمخاطر التي قد تعترض سبيلهم، والتفت إلى المترجم مردان:

لست ملزماً بالمجيء معي عزيزي مردان، فالأمر يبدو خطراً.

ظل مردان برهة يخيّر نفسه، لكنه قرر أخيراً:

لن أتركك وحدك في هذا الموقف، وستحتاجني حتماً للتواصل مع السيدة ومع الأطباء هناك.

ركب بيثوي ومردان في الفضاء الخلفي لسيارة الإسعاف مع السيدة، وانطلقت بهم متخذة سبيلها إلى خارج تلعفر في الطريق المؤدية إلى سنجار التي تبعد قرابة خمسين كيلومتراً، وتستغرق الرحلة إليها حين يكون الطريق سالكاً ولا مشكلات فيه، قرابة ٤٠ دقيقة، وفي الأثناء بحث بيثوي داخل الإسعاف فوجد لفافة بانديج كانت قد استعملت وأعيدَ لفُّها، وبعض الشاش الطبي، فأعاد الساق نصف المتورة إلى مكانها من المفصل، ولفَّ الشاش عليها بحيث تظل متماسكة، وعززها بشيء من البانديج، والتفت إلى الساق الأخرى المتورة كلياً فوجد التراب والنار قد جففت الجرح فلم يعد ينزف، أو لعله لم يبق لدى هذه المسكينة دمٌ ليُنزف.

في فوضى الإنقاذ وحركة الناس الباحثين عن ذويهم، وصراخ المنكوبين

بأحبائهم، لم تنتبه دورية الهامفي الموكلة بحراسة بيشوي إلى مغادرته مع الإسعاف، وظنّوا أنه ما يزال يلتقط الصور ويجري الحوارات مع الناس.

تسارع نبض السائق عندما بلغت سيارة الإسعاف منتصف الطريق بمحاذاة قرية كولات التي كانت من معازل الدواعش، كان عزاؤه الوحيد أنها تبعد بضعة كيلومترات عن الشارع العام، وهذا ما جعله يجازف بعبور الطريق على أمل ألا يكون هناك أي حاجز أو سيطرة للدواعش، لكنه لمح سيارة نوع (BMW) سوداء ضخمة قدمت من جهة الكولات مثيرة عاصفة من الغبار على الطريق الترابي المؤدي من القرية إلى الشارع العام، فضغط على دواسة البنزين عسى أن يفلت منهم، وظل يراقبهم في مرآته الجانبية، حتى أصبحوا وراءه على الشارع المبلط، فحاول أن يزيد السرعة حتى شارفت سيارة الإسعاف على أن تنحرف عن مسارها، لكنّ (الBMW) المزودة بمحرك ذي اثني عشر مكبساً لا يمكن الإفلات منها، فلحقت بهم بسرعة هائلة واستوقفتهم تحت تهديد السلاح، ونزل منها على وجه السرعة بضعة أفراد يرتدون تلك الثياب القصار، ويبدو من لحاهم وأسلحتهم أنهم دواعش، أحاطوا بالإسعاف، وذهب اثنان منهم فوضعوا جذع شجرة على الطريق ليعيق حركة أي سيارة تمرّ، تجمّد السائق في مكانه وأيقن من النهاية، سأله أحدهم الذي يبدو أنه قائد الزمرة:

من أين جئتم؟

من تلعفر.

أأنت وحدك أم معك أشخاص آخرون؟

معي امرأة مريضة.

تغافل السائق عن ذكر الرجلين، ولم يُرد أن يخبرهم أن المرأة من جرحى تفجيرهم الدموي لثلا يجهزوا عليها، وكان يأمل أن يتحرك فيهم عرق مروءة حين يسمعون أنها امرأة فيتركونهم لسيلهم، لكن زعيمهم أمره بالنزول وفتح الباب الخلفي للإسعاف، وحين فتحوا الباب وجدوا المرأة وقد بدا أنها مصابة في كل مكان من جسدها تقريباً، وآثار الدماء الممتزجة بالتراب لا تخطئها العين، وكان يشوي ومردان يجلسان قرب الحافة في هلع بالغ، فسألها الزعيم:

من أنتما؟

أجاب السائق مراوفاً:

هذان الرجلان من الأمم المتحدة وجاء لیساعدا المرأة المريضة.

الأمم المتحدة .. ها.. ومتى كان عمل الأمم المتحدة مساعدة النساء وإسعاف المرضى؟ أظننا أغبياء أيها الحقير؟ ماذا يفعل موظفو الأمم المتحدة بالكاميرات؟ ثم هي ليست مريضة، (وأضاف بنيرة شيطانية) ألا تخاف الله حين تكذب هكذا؟ أنتما إنزلا (صرخ بهما ملوحاً ببندقيته الـ M16).

نزل يشوي وصاحبه رافعين أيديهما فوق رأسيهما، أجلسه أحدهم على الأرض، وحاول أن يتل الكاميرا من عنقه بالقوة، فلم ينقطع سيرها القوي، فصرخ به:

هات الكاميرا أيها الأبرص واجلس هنا ولا تتحرك.

نزع الكاميرا عن عنقه وسلمه إياها، وظل يراقب بحذر ما يجري، فشاهد أحد

المسلحين يصطحب السائق ومرداناً إلى أسفل الطريق قليلاً ويجعلهما يبركان على ركبهما، سألهما عن اسميهما، وسألها أسئلة أخرى لم يتبينها بيشوي، وأخذ بطاقتي هويتها، نظر فيهما قليلاً ثم سلمهما للزعيم الذي أوماً إليه برأسه إيماءة الموافقة، فصرخ في وجه السائق:

شيعي كافر كلب.

وأطلق على رأسه وصدره ثلاث إطلاقات.، فرغ مردان رأسه نحوه وقال له:

أنا سني أرجوك لا تقتلني، لدي عائلة.

سني، لكنك مترجم عميل.

وأعدمه بإطلاقتين في الرأس والصدر أيضاً، فصرخ بيشوي فزعاً وحنناً على الرجلين البريئين، فركله الداعشي الذي قربه فأكبّه على وجهه، وصعد الزعيم إلى سيارة الإسعاف وأطلق رصاصة على مكان الضمادة في ساق المرأة فانتفض جسدها كله من الألم بصمت فقد كانت مغشياً عليها، وأطلق رصاصة أخرى على رأسها، ثم أخرج من جيبه علبة ثقاب وأشعل النار في ثيابها وفي المحفة الطيبة ونزل تاركاً سيارة الإسعاف تشتعل. ولاحظ بيشوي من وراء غلالة خوفه ويأسه ودموعه أنهم يتصرفون ببرود عجيب وهم يرتكبون هذه الجرائم، وأيقن أنهم قاتلوه لا محالة، ومرّ شريط حياته أمام عينيه بسرعة البرق، لكن الهاجس الذي سيطر على تفكيره، هو كيف سيتلقى بنوه الثلاثة وزوجه خبر مقتله؟ سيصدمهم الأمر ويجزئهم كثيراً، ولام نفسه في تلك اللحظة؛ لقد كنتُ حذراً طوال الوقت، وأراعي قواعد السلامة المهنية التي تدربت عليها كثيراً، فما الذي حدث وتركت حياتي تنزلق مني على هذا

النحو؟ صحيح إن إنقاذ تلك المرأة أمر عظيم يستحق المجازفة، ولكن لماذا لم أطلب من دورية حمايتي أن يرافقوني؟ انتبه من مونولوجه الداخلي هذا على ضربة بعقب البندقية على ظهره تحته على التوجه نحو سيارة الـBMW، وعندما صار قرب بابها، دفعه أحدهم بعقب البندقية ذاهباً به إلى خلف السيارة، فتح غطاء الصندوق، وأخذ قطعة سلك كهربائي كانت ملقاة داخل الصندوق وربط بها يدي بيشوي إلى الخلف، ثم دفعه إلى الداخل بقسوة، فتكوم الرجل مذعوراً في الصندوق، لكنه أيقن أنهم لن يقتلوه الآن في الأقل.

انطلقت السيارة، ويبدو أنها لم تعد أدراجها إلى القرية نفسها، لم يكن واثقاً من شيء أبداً، فقد سارت بلا مطبات، وهذا يعني أنها ما تزال على الشارع، لكن بعد قليل انحرفت نحو شارع ترابي، شعر بذلك من الاهتزازات الكثيرة والتراب الذي نفذ إليه من الثقوب، توقفت السيارة، وظل ينتظر أن يفتحوا باب الصندوق ليخرجه، سمعهم يتحدثون مع آخرين، ولم يعرف ماذا قالوا طبعاً، لكنه توقع أنهم يبحثون عن مكان لإخفائه، وبدأ يشعر بضيق شديد بسبب نقص الأوكسجين وروائح زيوت محركات ممتزجة برائحة دم قديم، لا بد أنهم نقلوا في هذا الصندوق جثث موتى ومخطوفين أحياء مراراً وتكراراً من قبل، لقد جرّب في هذه الدقائق العصبية شعور أن يكون المرء حياً داخل قبر، فلم يكن هناك سوى الظلام والخوف من المجهول وتوقُّع العذاب، وكلها لوازم الموت وإكسسوارات القبر.

تحركت السيارة مرة أخرى، على طريق غير مستوٍ مسافة بضعة كيلومترات، ثم استوت على شارع مبلط مرة أخرى وظلت كذلك قرابة ساعتين، تبطئ تارةً وتسرعُ أخرى، شعر بيشوي بألم شديد من جراء حز السلك المشدود بقوة حول

معصميه، وآذاه وضع جسمه المكور داخل صندوق السيارة طوال ما يقرب من ثلاث ساعات، وتذكر بالدوني الذي قتله خاطفوه هنا في العراق، إذ ذاك خامره شعور بأنه سيكون الضحية الإيطالية الثانية بعد زميله ذاك، لكنه صمم في داخله أن يقاوم فكرة الاستسلام للموت، وأن يشحذ ذهنه وعينيه وحواسه كلها ليعرف كل شيء يمكنه معرفته، فقد تكون معلومات المكان والزمان ووصف الأشخاص نافعة له ليتحرر من أسر خاطفيه. توقفت السيارة، وبعد دقائق أنزلوه فانهارت ساقاه بسبب الخدر، لكنهم أسندوه فوقف بصعوبة شديدة على قدميه، وسمعهم يتحدثون مع الزعيم الذي استقبلهم في المزرعة، وتطيّر كثيراً حين سمع كلمة جاسوس ترد على لسان زعيم الزمرة التي جاءت به، وكان قد تعلمها سابقاً وعرف معناها، وأدرك أنهم يقصدونه بها، ثم بعد ذلك صاح أحدهم:

تكبير

فرددوا جميعاً:

الله أكبر

كرروا هذا الأمر ثلاث مرات، أما بيشوي فاستثمر انشغالهم هذا ومسح بعينه المكان حوله، فوجد نفسه قرب بيت كبير ملحق بمزرعة فيها أشجار فاكهة وبعض أشجار اليوكالبتوس العملاقة، ولاحظ أن ثمة بوابة حديدية وسياجاً واطناً من البلوك، وكان ثمة عناصر يرتدون أزياء القاعدة المعروفة التي يغلب عليها اللون الأسود، وهم مسلحون بأسلحة أمريكية خفيفة M4 و M16، دفعوه إلى داخل المنزل وأدخلوه إلى حمام يقع أسفل درج البيت، وأغلقوا الباب عليه.

المحنة

في الثانية بعد منتصف النهار دخل ضابط برتبة ملازم إلى مركز الشهيد الصدر، وكان يبدو عليه أنه معتمٌ لأمر جلل، وسأل عن الدكتورة نهلة، فأرشدوه إليها، وكانت ما تزال مشغولة بمعالجة مَنْ تستطيع معالجتهم من الجرحى، استقبلته وقد بدا عليها الإجهاد والخوف من أن يكون ثمة أمرٌ خطير:

أنا نهلة، تفضل.

أهلاً دكتورة، أنا النقيب مهدي حسين من وحدة حماية الشخصيات.

أهلاً وسهلاً، كيف أخدمك؟

جئت أسأل عن السيد بيتر بيشوي، أنا قائد المفزة المكلفة بحمايته، لقد فقدنا أثره منذ ساعتين ولم نعرف إلى أين ذهب.

كيف فقدتم أثره؟ لقد مرّ بي صباح اليوم، بعد التاسعة بقليل، وبقي هنا قرابة نصف ساعة، سألتني عن أعداد الشهداء والجرحى، وساعدني قليلاً، ثم غادر إلى موقع الحادث لإجراء مزيد من الحوارات والتقاط الصور، هكذا أخبرني قبل

مغادرته، حتى إنه نسي دفتر ملاحظاته هذا (وأخرجت دفترًا متوسط الحجم من حقيبة يدها).

نعم كنا معه هناك، لكنه بعد قليل اختفى هو و مترجمه ولم نعلم إلى أين ذهبوا.

أرجو أن تبحثوا عنه جيداً، الرجل صحفي مهني ينقل الوقائع التي تجري هنا بمصداقية، وليس كالأخرين الذين شوهوا الصورة وقلبوا الحقائق، وهو ضيفنا أولاً وأخيراً.

نعم، سنفعل حتماً، وهذا هو واجبنا في الحقيقة، هل لي برقم هاتفك في حال استجد شيء؟

أملت عليه رقم هاتفها فنّ عليه ليبادلها رقمه، وغادر المركز:

شكراً لكِ وكان الله في عونكم.

عفواً سيدي الكريم، وكان الله في عوننا جميعاً.

في المساء وردها اتصال من النقيب مهدي يخبرها أنهم علموا من بعض الموجودين في موقع التفجير أنه ذهب برفقة سيدة مصابة أُخرجت من تحت الأنقاض صباح اليوم ورافقها هو و مترجمه إلى مستشفى سنجار، ثم بعد صمت قصير، تنهد وقال لها:

لقد اتصلت بالقوة المكلفة بحماية المستشفى فأكدوا عدم وصول أيّ سيارة إسعاف من تلعفر طوال النهار، فاصطحبتُ مفرزتي وتابعتنا مسارهم بالتنسيق مع القوة المرابطة على مدخل سنجار، فعثرنا على سيارة الإسعاف محترقة تماماً والمرأة

الجريجة متفحمة بداخلها يا للأسف، وقريباً منها وجدنا جثتي سائق الإسعاف والمترجم، ولا أثر لبيشوي.

ومع كل خبر من هذه الأخبار المرّوعة كانت روحها تشهق بنحيب مكتوم، وتهاجر دموعها من مآقيها إلى داخل قلبها في رحلة عناد وصبر، كان بعض أقربائها وزملائها يقولون لها إن قلبها قد مات، لفرط ما عايشت الموت بجلد، لقد رأوها تلم أحشاء المصابين بيديها وتدخلها إلى أجوافهم ثم تخطط الجراح كأنها تخطط قميصاً، ورأوها تجمع الرؤوس المقطوعة إلى أجسادها وتضعها في أكياس بلاستيكية ريثما يحضر ذوو الشهداء ليتعرفوا عليهم ويتسلموهم، طوال وقت الاتصال لم يسمع منها النقيب مهدي سوى عبارتي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

في صباح اليوم التالي تلقّت اتصالاً من رقم غير معرّف لديها، وكان المتصل رجلاً أخبرها أنه من «تنظيم الدولة الإسلامية»، وأنهم يحتجزون «الجناسوس الإيطالي» بيشوي، وأنهم سيعدمونه ما لم تستجب حكومة «الروافض العميلة» لمطالبهم بإطلاق سراح أسرى التنظيم في السجون العراقية.

بلعت نهلة ريقها الذي جف فجأة من هول ما تسمع، ولم تدري بماذا ترد، لكن خطر لها أن تنكر معرفتها به أولاً لكسب بعض الوقت للتفكير ولتضليل الدواعش، فقالت:

من أين حصلتم على رقم هاتفي؟ وما علاقتي بهذا الشخص؟

لا تتذكري علينا، لقد وجدنا رقمك في هاتفه ووجدنا مراسلات (SMS) بينكم

بالانكليزية.

حسناً أنا أعرف السيد بيشوي، وهو ليس جاسوساً، إنه يعمل في منظمات الإغاثة.

كانت تعلم جيداً حساسية الدواعش من الصحافة والصحفيين الأجانب، ولذلك كذبت عسى أن تنقذ حياته.

اسمعي أيتها الراضية العاهر، أبلغني مسؤوليكم في المدينة، أو في أحزابكم أو جيشكم الراضية بما قلناه الآن، المهم أن تصل الرسالة، ولا يتصلنَّ أحدٌ منهم على هذا الرقم، سنتصل نحن في الوقت المناسب، وتردين علينا أنتِ بالتحديد ولا أحد سواكِ. ما كادت تغلق معه الخط حتى اتصلت بالنقيب مهدي وأبلغته بما جرى، وشدت عليه بضرورة إيصال الرسالة إلى القادة العسكريين الكبار، عسى أن يتصلوا هم بالحكومة، أو بسفارة بلاده على الأقل، فيُتخذ إجراء لإنقاذ الرجل المسكين، وزودته برقم الهاتف الذي اتصلوا منه، ملأت إبريقاً كبيراً بالماء وعبت منه طويلاً، وجلست ترتاح، وتفكرت فيما يمكن أن يحدث بعد ذلك، فهي لا ترجح أن تستجيب الحكومة العراقية لذلك الطلب، ولا تصدق أيضاً أن يحافظ الدواعش على حياة الرجل، ويطلقوا سراحه في حال استجيب لمطالبهم، لقد بدا لها الوضع شديد التعقيد، ووجدت نفسها وسط محنة إنسانية وأخلاقية لا يمكنها الخروج منها.

مرّ صباح اليوم التالي كله ولم يتصل أحد، لا من جهة الإرهابيين، ولا من جهة الجيش أو الحكومة، ورغم استمرار انشغالها بمداواة الجرحى وإتمام إجراءات تسليم الشهداء إلى ذويهم بعد التعرف عليهم، إلا أن القلق ساورها من ذلك الصمت،

لكنها طمأنت نفسها بأنهم ما تزال بهم حاجة لوجوده حياً، فهم يريدونه ورقة يسامون عليها، وسيخسرون هذه الميزة لو قتلوه الآن، وفي الدقائق التي اعتادت أن تسرقها من عنائها اليومي المتواصل لترتاح قليلاً أو لتأكل ما يعطيها القوة لمواصلة العمل، خطر لها أن أمر بيشوي بين يدي الله والحكومة والجيش الآن، وأنها لا ينبغي لها أن تضيف عبء غيابه أو موته فوق أعبائها الثقيلة، لكنها رفضت رأسها من ذلك الخاطر الغبي، فإن تقلق بشأن الناس أو لا تقلق، فذلك ليس قراراً، لا سيما إذا كانوا يتسمون بإنسانية عالية ويعتقدون بعدالة قضيتك، ويعملون من أجل أن يعرف الناس ذلك، كما يفعل بيشوي.

عصر ذلك اليوم توفي لديها في المركز ثلاثة من الجرحى ممن كانت حالاتهم خطيرة، رجلين أحدهما أصابته شظية في الرقبة قطعت شريانه السباتي الأيسر، ولم تتمكن نهلة من إيقاف النزف رغم محاولاتها الكثيرة، والآخر اخترقت قضبان تسليح صدئة أحشاءه وبلغت كبده، ولم يكن لديها أي نوع من المضادات الحيوية لتعالجه بها، فمات بتسمم الدم، أما الحالة الثالثة فكانت امرأة لم تكن إصاباتها بليغة، لكنها توفيت بعد أن علمت باستشهاد زوجها وابنتها في التفجير، لقد قتلها الكمد الذي تسرب من قلبها المنظف إلى قلب نهلة، فلم تنم تلك الليلة، وداهمتها الكوابيس، فكانت تغفو قليلاً، فتجد نفسها غارقة في خزان ماء مغلق تسبح فيه أسماك متوحشة تقضم جفونها بأنيابها الحادة، فتستيقظ فزعة، وقد تبلل جسدها وفراشها من شدة التعرق، وتغفو ثانية فتحلم أنها تسير وحيدة في حقل مسامير شاسع، تحت سماء حمراء من نحاس مصهور، فتقطع أنفاسها قبل أن تستيقظ وقد صارت أعضاؤها كتلة من جمر، ولما تكررت كوابيسها تركت النوم، وتناولت مصحفاً وجعلت

تقرأ فيه، ووقفت طويلاً عند قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ (١٠) فَفَتَحْنَا
أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴿

كأنها استيقظت على هاتف يهتف بها من السماء، طمأنينة داخلية لا حدود لها
انسكبت في روحها كشلال من الرحمة والسكينة، وعندما انتهت من تلاوة القرآن،
تَلَّتْ كعادتها التي تعلمتها من الشيخ أحمد الوائلي الآية الكريمة: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ
الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ﴿ وظلت ترددها حتى اختطفها من أرقها نوم
عميق.

«حردان»

قضى بيشوي ليلته تلك في الحمام أسفل السلم، مربوط اليدين إلى الخلف، ولسوء حظه كان المرحاض شرقياً، فلو كان غربياً لتمكّن من الجلوس عليه ليحظى ببعض الراحة، فذهب إلى أقصى زاوية من الحمام وكانت جافة واثكأ بظهره على الجدار ثم أنزل نفسه رويداً ليجلس، كانت الأصوات في الخارج تأتيه غير واضحة، أو واضحة وغير مفهومة، فحصيلته من العربية كانت بضع كلمات قليلة باللهجة العراقية الدارجة تعلمها في رحلته السابقة وهذه الرحلة، شعر بظماً شديداً، فنادى عليهم:

مَي .. آي وونت سَم «مَي»

لم يجبه أحد، كأنهم نسوه هنا، مع أن جَلَبَتَهُمْ لم تتوقف، ولم يكفّوا عن الضحك والصراخ على بعضهم، كرّر بيشوي نداءه مرتين آخرين، ثم كفّ عن ذلك، مفضلاً أن يوفر طاقته، فهو لا يدري كم سيمر عليه من الوقت هنا، ومتى يتذكرونه بهاء أو طعام، لكنه قرر أن يشرب من ماء الدُش حتى لو كان غير صالح للشرب، فقام وأدار ظهره لصنبور خلاط الدُش وفتحته فتدفق منه الماء وشرب وبلبل وجهه ورأسه

قليلاً لكي يظل في كامل وعيه لما تبقى من النهار، بانتظار ما سيحدث.

في المضافة الكبيرة التي اعتاد عناصر التنظيم الجلوس فيها، عقد أبو صهيب الشيشاني الأمير المحلي لتلك المنطقة اجتماعاً دعا إليه مَنْ كانوا تحت إمرته في النواحي والقرى، وكانت الساعة قد قاربت العاشرة مساءً، فالتأم جمعهم، وحضر معهم أتباعهم الأدنى مرتبة، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، وتلا آيات تحث على قتال الكفار والمشركين، قال لهم بلكنة أعجمية شديدة، وهو يتكئ على غدارته الأمريكية الصنع: إخوتي المجاهدين، صار لدينا عدد كبير من الأسرى والسبايا، وقد رأينا أن نقلهم جميعاً إلى المناطق القريبة من الحدود السورية.

قال أحد أمراء القرى:

لماذا يا أمير؟ أليس بقاؤهم معنا أفضل، يمكننا أن نستخدمهم دروعاً عندما نضطر إلى ذلك.

نظر إليه شزراً، وردَّ وقد ظهر عليه الانزعاج:

ليس من عادتنا أن نجادل أولي الأمر في ما ليس لنا به من علم، ومع ذلك أجيبك، لأننا مقبلون على خوض معارك ضارية ضد الروافض والحكومة العميلة (وطرق بشدة على أخص الغدارة)، ولن يكون بوسعنا التحرك بسهولة ونحن نجرُّ معنا هؤلاء الأسرى، لكن من هناك، من المناطق القريبة إلى الحدود سنكون قادرين على نقلهم إلى إمارتنا في الشام، في الرقة أو الحسكة، أو أي مكان آخر.

قبل منتصف الليل بقليل، دخل عليه العنصر المكلف بحراسته إلى الحمام،

فوجده متكئاً بظهره إلى الجدار شبه مغشيٍّ عليه، عيناه نصف مغمضتين ويهذي بكلمات إيطالية لم يفهمها، تناول طاسة من رف الحمام وملاًها ماءً ورشَّ بها وجهه يشوي، فاستفاق قليلاً، خرج الحارس، وعاد بعد قليل يحمل صينية صغيرة، فيها قدح ماء وسندويجة صغيرة، قطع بسكينه السلك الذي يقيد يديه، ووضع الصينية أمامه وخرج وأقفل الباب وراءه.

استيقظ يشوي فجراً على صوت جلبة عالية، فُتح الباب عليه بقوة، ودخل الحارس ومعه مسلح آخر وأنفضاه، ربطا يديه إلى الخلف مرة أخرى، ووضعوا عصا سوداء على عينيه، وساقاه أمامهما إلى سيارة نوع كيا باص مغلقة ليس على جوانبها نوافذ تحمل لوحة أرقام حكومية وكتب على جوانبها بحروف كبيرة وحدة الـ 9K زودهم بها مسؤول في الشرطة المحلية لمدينة الموصل متعاون مع التنظيم، وقد عرّف من الأصوات الخائفة والأنفاس المبهورة التي كانت تتناهى إلى سمعه، أنه لم يكن الأسير الوحيد في السيارة، وبدت له الرحلة أقلّ مشقة هذه المرة، فهو جالس على أرضية السيارة الخالية من الكراسي وليس ملقّى كسقط متاع في صندوقها، وأثناء سير السيارة وحركتها لامسته أكتاف أناس آخرين فتأكد ظنّه، لكنه لا يعلم إلى أين يذهبون به وبمن معه من سجنائهم، استغرق الطريق هذه المرة وقتاً مقارباً لوقت رحلة يوم أمس الشاقة، وخمن أنهم عادوا به من حيث أتوا أمس، وصدق تخمينه، فبعد مسير دام أكثر من ساعتين وثلاثين دقيقة على شوارع مبلطة، دَرَجَت السيارة على طريق ترابي غير مستوٍ قرابة عشر دقائق قبل أن تقف، أنزلوهم مباشرة وساقوهم إلى قاعة طويلة خالية من أيّ أثاث أو فرش، وألقوهم هناك، ولأنّ عينيه معصوبتان، فقد أرهف السمع، فسمع صوت أنين مكتوم وهسيس أنفاس مبهورة قريبة منه،

لكنه لم يجرؤ أن يسأل، وأنى له ذلك؟ وبأية لغة؟ بيد أنه سمع أناساً يتهامسون بالعربية تارة وبلغات أخرى لم يتبينها، فخمّن بعد ذلك أنه في قاعة سجن كبيرة، وأن معه مخطوفين آخرين، أو أسرى معارك، وتأكد تخمينه عندما فُتح الباب بضع مرات آخر، ورُمي بمخطوفين أو أسرى آخرين الى الداخل بعنف مصحوب بصراخ وأصوات عالية.

بعد الظهر بقليل فُتح باب القاعة ودخل بضعة عناصر من التنظيم وأزاحوا العصابات السود عن عيون يشوي والآخرين وتركوها معلقة على عنق كل منهم، وفكّوا قيود أيديهم، وحال زوال التشوش البصري من عينيه مسح محيطه بسرعة فوجد نفسه مع قرابة خمسين إنساناً، أكثرهم من النساء، وبدا من أزياء النساء أن معظمهن قرويات، أما الرجال فكان بعضهم يرتدي الصاية والعقال والكوفية العربية البيضاء، وآخرون كانوا يرتدون أزياء تشبه الأزياء الكردية، وكان بعض الرجال المسنين يتميزون بشوارب طوال مفتولة، ويبدو أنهم خليط من التركمان الشيعة وسكان القرى العربية والشبك في الموصل ومن إيزيديي سنجار وما حولها، بيد أنه ملح بينهم، على مقربة منه، رجلاً أشيب الشعر أشعثه، يرتدي سروالاً وقميصاً أبيض حال لونه لفرط ما علق به من التراب، ويلف السترة تحت رأسه مثل الوسادة، ويتململ في نومه المعذب على الأرض مباشرة، ملتفّاً على نفسه كهراً لضيق المساحة، فتنبه إلى أن مَنْ كانوا مثله معصوبي العيون ورفعت العصابات عن عيونهم أقل من العدد الكلي، واستنتج أن بعض السجناء أو المخطوفين موجودون أصلاً هنا قبل وصوله مع الوجبة الجديدة، ويبدو أن هذا الأنيق النائم أحدهم.

بعد ساعة دخل ثلاثة رجال ورموا رزمة من الصحن البلاستيكية ذات

الاستخدام الواحد، وقالوا للناس: ليأخذ كل منكم صحناً، ثم وضعوا أمام الباب قدراً كبيراً مملوءاً بالرز الأبيض، فقام القدماء وشكلوا طابوراً وكان لديهم صحنونهم، ففعل القادمون الجدد مثلهم، وقام بيشوي الذي لم يدخل جوفه من الطعام سوى السندويشة التي تناولها في الحمام هذا الصباح، وأخذ صحناً ووقف في الطابور، وقام الرجل ذو البدلة ولبس سترته وحمل صحنه ووقف وراء بيشوي مباشرة، تأمل الرجل بيشوي قليلاً ولم يكلمه، لكن يبدو أنه عرف أنه أجنبي من سحنته الشقراء وعيونه الملونة، وقبل أن يصلوا إلى القدر، بادر الأنيق قائلاً:

(احتفظ بصحنك بعد هذه الوجبة) KEEP YOUR PLATE AFTER THIS MEAL

ثم أضاف برود:

(أو ستتضور جوعاً حتى الموت). OR YOU WILL STARVE TO DEATH

لم يختبر بيشوي شعور الفرحة منذ وصوله إلى العراق، فكل ما واجهه طوال الأيام الماضية لم يتعد أخبار الموت والتفجيرات والقتل والأطفال المفجوعين بيتم الكون كله، وكانت هذه أول مرة يسره شيء، فحين تجد شخصاً يمكنك أن تتحدث إليه في قلب المحنة، فإنك ستكون قد نجوت من أحد الجحيمين؛ أن تكون تحت رحمة وحوش كهؤلاء، وأن تجرّسك اختلاف اللغة الإجباري، لكن الجحيم الأعمق هو غربتك المكانية واللغوية معاً.

ردّ على الرجل بحبور:

شكراً لك، أجدني في هذه اللحظة محظوظاً حقاً برفيق مثلك.

بعدهما تسلما غداءهما المؤلف من الرز الحاف مع كسرة خبز، جلس بيشوي قرب الرجل ووضع صحنه على الأرض ومدّ يده نحو الرجل مصافحاً:

أنا بيتر بيشوي (تذكّر قصة الأمم المتحدة التي اخترعها سائق الإسعاف المسكين قبل أن يقتلوه، ولعلها هي من أنقذته حتى الآن، ولا يجد ضرورة للتفريط بها، أو ذكر وظيفته الحقيقية في الوقت الراهن) من الأمم المتحدة، رغم أن حالنا لا يدعو إلى السعادة أبداً، لكنني سعيدٌ حقاً بلقائك.

تحسين بيات، مدرس لغة انكليزية، تشرفت يا سيدي.

نظر تحسين إلى بيشوي، ولاحظ حيرته أمام صحن الرز دون ملعقة، فقال له:

ستعتاد الأمر يا عزيزي، عليك أن تبدأ فقط، هكذا (وتناول بيده كومة من حبات الرز وكوّرها قليلاً ثم دفعها إلى فمه، وبدأ يمضغ من دون أية شهية) وأردف:
BON APPETITE (شهية طيبة).

بعد صمتٍ قصير، سأله بيشوي:

منذ متى وأنت هنا؟

لقد ولدتُ هنا أمس!

كيف؟ ماذا تعني ولدتَ هنا؟

أسروني منذ ثلاثة أيام، وكان مقرراً أن يعدموني أمس، لكن يبدو أنهم عدلوا عن قتلي في اللحظة الأخيرة!

في تلك اللحظة كفّ بيشوي عن الأكل، تجمدت يداه وشعر بمرارة تندلع في ريقه، فشرّب بعض الماء، لقد صدمه أن يقابل (لعازر) آخرَ عائداً من الموت في غضون ست وثلاثين ساعة بعد تلك السيدة الجريحة المسكينة، حاول أن يتخيل شعور إنسان يقتاده خاطفوه إلى الموت، ويوشكون أن يقتلوه، ثم يتغير قدره ومصيره، وتمهله الدنيا وقتاً آخر يعيشه لا يدري أيطول أم يقصر، كيف سيواصل حياته بعد «الولادة الجديدة»؟ أفي رعبٍ دائم؟ أم ستتسوي لديه الحياة والموت، ولن يضره شيء بعد ذلك؟ كان يودُّ أن يسأله كلُّ هذه الأسئلة، لكنه تراجع خوف أن يشوّش عقل الرجل ويمز استقراره النفسي، فسأله عوضاً عن ذلك:

وهل لديك أية فكرة عن المكان الذي نحن فيه؟

نحن في قرية حردان، قرية مسالمة يقطنها الأخوة الأيزيديون، احتلها الدواعش وقتلوا من أهلها من قتلوا، وأسروا وسبوا أناساً كثيرين، وحولوها إلى مقر قيادة ثانوي يشتمل على سجن.

كيف عرفت ذلك؟

أنا تركماني من قرية سينو، وأعرف هذه المناطق جيداً، صحيح أنهم ربطوا عيوني عندما اختطفوني، لكنني خمنتُ أن يأتوا بي إلى هنا، لأن هذه القرية أصبحت معقلاً لهم، وفضلاً عن ذلك فإن الأيزيديين يتكلمون العربية وبعضهم يتكلم الكردية وأنا أجيد كليهما، وقد سألتهم وأكدوا صواب تخميني.

وماذا عن قريتك، سينو، حدثني بالتفصيل أرجوك.

سينو

استغرق تحسين في «صفنة» طويلة، كأنه يحاول أن يستعيد الأحداث، أو لعله يريد أن يبعدها عن خياله، غاب وراء دخان كثيف وصور مُعذِّبة تكوي ذاكرته وتسلخ ما تبقى في روحه من شعور، ولاحظ بيشوي ذلك فقال له:

إذا كان الأمر يزعجك أو يسبب لك حزناً، فدعه يا عزيزي.

كلا، لا بأس، لقد مرّ وقت لم أكن أستطيع فيه حتى ذكر اسم القرية دون أن تنسكب دموعي، ويبدأ جسدي كله يرتجف، لكن خلص، لقد نضبت الدموع، وأصبحت الآلام أو كسجيننا الذي نتنفسه، لا بأس يا رفيق العذاب.

سينو هذه قرية يقطنها تركمان شيعة، تعداد سكانها قرابة ٢٥٠٠ نسمة، نحن أناس مزارعون مسالمون اجتاحت داعش قرينتنا فهرب كثيرون، ومن لم يتمكن من الهرب أما قُتل أو أُسر، وأنا شخصياً كنتُ مدير المدرسة الابتدائية الوحيدة في القرية، ولم أستطع ترك المدرسة ومغادرة القرية قبل آخر إنسان فيها، تماماً كما قد يفعل ربان السفينة، (قاطعته بيشوي):

ألم يكن للقرية زعيم أو شيخ؟ أم أنك أنت الزعيم؟

كلا لستُ الزعيم، لكنني كنت طوال ٢٨ عاماً أعلم أبناء القرية وبناتها الشجاعة والمبادئ، حتى زعيم القرية الشاب كان أحد طلابي، لم يكن من المروءة أن اقفز من القارب وما يزال ثمة أناس عاجزون أو مرضى أو مسنون، تأخرت لأصطحب أم غالب، وهي امرأة مقعدة لم يبق لها أحد في الدنيا بعد أن فقدت ابنها البكر غالباً في حرب الخليج الثانية حين انسحب الجيش من الكويت تحت وابل القصف في طريق الموت، وفقدت الثاني عندما اعترض طريقه إرهابيو القاعدة في منطقة العظيم عام ٢٠٠٧، ولم يبق لها سوى حفيدتها نجاة ابنة غالب الوحيدة، وهي متزوجة ولديها خمسة أبناء وبنات، وتوقعت أن تنشغل الحفيدة وزوجها بإنقاذ أولادهما، ولن يهتموا للعجوز كثيراً، صحيح أنهما كانا يبرّانها ويعتنيان بها على قدر ما يستطيعان، وكنتُ مثلهما أتابع احتياجاتها وأشتري لها الدواء والطعام بين حين وآخر، لكن في أوقات الفزع ستكون سلامة أسرتهما أولويتيهما الأولى، ثم إنهما سيفكران أن لا خوفَ على العجوز من الدواعش، (قاطعها بيشوي):

وماذا حدث؟

كما ترى احتلت داعش الموصل وأعلنتها إمارة وعاصمة لدولتهم المزعومة، ثم تقدمت لاحتلال تلعفر وما حولها من قرى ونواح، كان الناس هنا يتوجسون خيفة من ذلك الطوفان المرعب الآتي إليهم لا محالة، وقد تقطعت بهم السبل فلا طريق يُخرجهم إلى بغداد والمحافظات الجنوبية، ولم يسمح لهم الأكراد بدخول مناطقهم، دُعر الناس وغادروا بيوتهم حاملين ما خَفَّ من المؤونة فقط، وتركوا كل شيء

وراءهم، كانت الوجةة جبل سنجار حيث يمكنهم أن يعتصموا هناك، أيزيديون وتركان شيعية وشبك وما تبقى في تلك المناطق من مسيحيين.

ماذا عن عائلتك أنت؟ أكان لديك من يهتم بهم سواك؟

عشت السنوات الست الماضية وحيداً، في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٨ توفيت زوجتي بسرطان الدم، قالوا في حينها إن كثرة أنواع السرطانات المنتشرة في العراق مردّها الى الأسلحة المحرّمة التي جربتها أمريكا ودول التحالف في حربي الخليج الثانية والثالثة، وقلنا حسبنا الله ونعم الوكيل، وسافر ولداي فضل وأنار بعد وفاة والدتهما بأشهر إلى سوريا واستقرا هناك حتى يوم الناس هذا، وفي ربيع عام ٢٠٠٩ تزوجت ابنتي الوحيدة وهي تعيش في كركوك الآن.

حسناً أكمل، وماذا فعلت؟

عدت إلى العجوز فوجدتها مستلقية على فراشها الرث، وكانت تتمتم بالاستغفار والتسبيح فقط، وفي عيونها رعب الوحشة لا الموت، أظنها لم تكن تخاف الموت قدر خوفها من الوحشة، إنه لمن المرعب أن يعيش المرء عاجزاً ووحيداً، فضلاً عن أن يجد نفسه تحت طُبي خناجر الدواعش، حين رأيتي بكت بدمع حار دون نشيج، قبلتُ رأسها ويدها، فقد كنتُ أرى فيها والدتي التي توفيت حين كنتُ صبيّاً، جمعتُ لها أدويتها وبعض الثياب، وأجلستُها على كرسيّها المتحرك، وخرجت بها أريد أن ألحق بركب الهجرة العظيمة، ففوجئتُ بأن القرية خالية إلا من بعض الكلاب تنبح هنا وهناك، وكان صوت الرصاص يلعلع في الأرجاء، ولم تكن الطرق في القرية مبلطة، كنتُ أسير بها على حصي وأتربة وأوحال، ولم أكد أبلغ آخر بيوت

القرية حتى اعترضتني موجة قوامها بضع مئات من البشر؛ نساءً ورجالاً وأطفالاً، مسلمين وإيزيديين وشبك، عائدتين فراراً باتجاه القرية، إذ يبدو أن الدواعش التفوا من الخلف وقطعوا عليهم الطريق إلى سنجار، نجا منهم من بگروا بالهروب، أما نحن المتأخرين فقد حوصرنا بين فكي الكماشة، ثم اقترب صوت الرصاص حتى صرنا نسمعه على مشارف القرية من الجهتين الشمالية والجنوبية، فتفرقت بالناس السبل، التجأ قسم منهم إلى حسينية القرية، أما أنا والعجوز أم غالب وقسم آخر فقصدنا المدرسة واحتمينا بها، وذهب بعض الناس في محاولة للهروب نحو غرب القرية، لكن هيهات.

كان يشوي يصغي بكل ما أوتي من تركيز، لكن فاجأهما أثناء الحديث دخول خمسة من عناصر التنظيم، أمروا النساء أن يقفن في طابور إلى الجدار، وصاروا يتفرون في وجوههن المرعوبة، وينظرون إليهن من الأعلى إلى الأسفل، كمن يتخير ثياباً، أخرجوا إحدى عشرة امرأة شابة تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، إحدى الفتيات كانت مع أمها فتمسكت إحداها بالأخرى، لكنهم فصلوهما بالقوة، وركلوا الأم مراراً على صدرها ورأسها حتى أردوها أرضاً بلا حراك، بينما ظلت الفتاة تصرخ صراخاً هستيرياً بلا هوادة، فاضطروا إلى تركها.

ظل الناس ومعهم يشوي وتحسين واجمين، وظلت الفتاة تنشج بينما والدتها غائبة عن الوعي والزبد يخرج من فمها، تلقفت إحدى النساء الأم المسكينة وأمالتها إلى الجانب لكي لا تحتنق بلعابها، بعد قليل عاد اثنان من المسلحين وسحلوا المرأة وأخرجوا ابنتها معها، وأغلقوا الباب، واستمر الناس يسمعون هستيريا الصراخ تأتي من الخارج، وانكفأت بعض النسوة في زاوية الغرفة المستطيلة وتكورن بلا حراك.

كفّ تحسين عن الكلام، ولاذ بصمت جريح، مثل أبٍ انتزع شرفه عنوةً، لقد شعر كأنهم أخذوا زوجه وابنته رغماً عنه، ونفذت سكين باشطة في قلب كرامته، واكتفى بيشوي بالتعاطف الصامت دون أن ينبس بكلمة، لكن كانت عيناه تفصحان عن ألم عميق.

تخافت صوت صراخ الفتاة شيئاً فشيئاً، وبعد قرابة ساعة، فتحوا الباب وأخرجوا الجميع إلى باحة خلفية محاطة بسياج عالٍ من الحجر، ثبتوا عمودين خشبيين في النهاية القريبة من الجدار وربطوا الفتاة على أحدهما والأم على الآخر بحيث تواجهان العمودين وكشفوا ظهريهما، وبعد ان تأكدوا من حضور كل السجناء، خطب الأمير أبو الهيجاء التونسي وبلا مقدمات دينية، قائلاً:

إن عصيان أوامر أولي الأمر خطيئة كبيرة، يحاسبكم الله عليها في الآخرة، ونحاسبكم نحن عليها في الدنيا، ولكي تعتبروا يا أولي الألباب، إن كانت لكم ألبابٌ أصلاً أيها الكفرة الفجرة، فستشهدون عقوبة مَنْ خالفنَ وليَّ أمرهنَّ ومالكَ رفقهنَّ، بإقامة حدود الله عليهنَّ.

أنهى كلمته وأعطى الأوامر بالبدء، فجاء جلادان يلبس كلُّ منهما صديرياً أسود فوق الجلباب الأبيض، ويضعان قناعين على وجهيهما إمعاناً في الترهيب لا خوفاً من كشف هويتهما، وشرعا يجلدان المرأتين وسط ذهول السجناء ورعبهم، فعلاً صراخ الفتاة على نحو فاجع، بينما اكتفت الأم بأنينٍ مكتوم، ولم تتحمل إحدى النساء المنظر فانهارت إلى الأرض مغشياً عليها.

حين أعادوهم إلى الغرفة المستطيلة، انتبذ بيشوي مكاناً قرب صديقه تحسين وقرص فيه، عسى أن يغفو قليلاً بعد تراجيديا القرون الوسطى التي شهدتها قبل

قليل، مشهدٌ ذكره بمشاهد تعذيب الساحرات، أو من تتهمةن الكنيسة بذلك في تلك القرون الغابرة، قرأ كثيراً عن ذلك التأريخ المظلم، كان يكفي أن تغضب المرأة قسيساً، أو ألا تستجيب لنزوات أمير، لتستحق صفة الساحرة الشريرة، وثمة حكم تطهيري جاهز ضدها، هو الموت حرقاً في الغالب أو بطرق أخرى مختلفة.

غفا بيشوي بضع دقائق، فأوجعت عينيه لسعة سوط على وجهه، ثم تلاحت السياط يميناً ويساراً، وهو يحاول تفاديها بيديه، ويتكور على نفسه، لكنها كانت تنفذ الى روحه من مسامات جلده وتشعل النيران في نهاياته العصبية، لم يتمالك نفسه من الصراخ والعويل، حتى هزه تحسين من كتفه بقوة فاستيقظ، وما زالت أنفاسه مبهورة كوعلى نجا بأعجوبة من أبواب ذئب مسعور، قال له ليهدئه:

تماسك يا صديقي، فما زلنا في أول طريق المحنة، عليك أن تدون كل ما ترى في عمق وجدانك، وتجتازه بصبر أنبياء، لأن على الحياة أن تستمر، وعلى التأريخ أن يسجل.

كان بيشوي يستمع الى تحسين وعيناه تحمقان في الفراغ، إذ لم يكن ما اختبره تواء محض كابوس، فلقد شعر بلسعات السياط حقاً، وهو موقن أنه لو نضا ثيابه فسيجد آثارها ماثلة على جلده، كأن حاجزاً قد انهار بين عالمي اليقظة والحلم، أو كما ينهار أحياناً الجدار الرابع في المسرح.

ما رأيك لو أكملت لك حكاية سينو - قال تحسين ذلك محاولاً أن يعيد الرجل الى الواقع بهدوء - لكنني أحذرك أن فيها أهوالاً ومآسي، أفأنت مستعد؟

ردّ بيشوي بيقين اليائس الذي لا خيار له:

نعم يا رفيقي، كل الاستعداد، أكمل حديثك.

حسناً، أحاط الدواعش بالقرية من الجهات كلها، وأسقط في أيدينا، وأسلمنا
أمرنا لله.

لماذا لم تقاوموهم؟

لأننا أناس مزارعون عزّل لم نتدرب على القتال، ولا نملك أسلحة، وحتى
لو كان لدى بعضنا مسدس هنا أو بندقية هناك، فإنها غير كافية ولا تصمد بوجه
أسلحتهم المتوسطة والثقيلة وقسوتهم المفرطة، ثم إن أكثر سكان القرية من النساء
والأطفال، لكن مع ذلك فإن رجلين ممن كانوا في الحسينية قاوما بما تيسر لديهما من
سلاح خفيف، لكن قناصي الدواعش تمكنوا منها واحداً بعد الآخر.

حسناً، أكمل.

سمعت أنهم أمعنوا في التنكيل بالناس هناك لسببين، أولهما أنهم شيعة حتماً،
وثانيهما أنهم كانوا يهتمون بالحسينية التي يرونها مكاناً للشرك لا للعبادة، وفوق هذا
كله فإن الرجلين اللذين قاوما قتلاً بعض عناصرهم.

وماذا فعلوا بهم؟

اقتادوهم الى الخسفة وألقوهم فيها.

الخسفة؟ ما معنى ذلك؟

الخسفة يا عزيزي حفرة عملاقة سحيقة العمق، تقع جنوب الموصل في قرية

العذبة، وتبدو كأنها ناجمة عن اصطدام كويكب صغير بالأرض في عصور غابرة، استخدمها الدواعش في دفن ضحاياهم موتى أو أحياء، كانوا يلقون بالناس فيها بالجملة، ومن ينبج من السقوط المميت يلاحقوه بالرصاص أو يتركوه جريحاً ينزف حتى الموت.

يا إلهي! لهذا الحد بلغت بهم الوحشية؟ وماذا عنكم أنتم المحتمون بالمدرسة؟ وماذا عن الآخرين؟

أثناء اختبائنا في المدرسة سمعنا إطلاق نار كثيف داخل القرية، لم نعرف بادئ الأمر على من أطلقوا تلك النيران، لكن بعد أن أسرونا وساقونا إلى هنا، شاهدنا جثث الناس متناثرة في طرقات القرية وباحاتها، لقد قتلوا كل من حاول الهروب فوراً، أما لماذا لم يقتلونا فوراً فذلك ما لا أستطيع أن أجزم بقول فيه، لكن الأرجح لأن بيننا عدداً لا بأس به من النساء، وهن خليط من التركمانيات والأيزيديات كما ترى، وليس ذلك رافة بهن، بل رغبة في استعبادهن رقيقاً أبيض، تحت عنوان «سبايا الفتح».

كم كان عددكم؟

كنا قرابة خمسة وأربعين فرداً، ستة رجال وخمس عشرة امرأة والباقيون أطفال، عزلوا الأطفال منذ البداية ولم نعلم مصيرهم حتى اللحظة، أما نحن البالغون فقد عصبوا عيوننا قبل أن نخرج من سينو، وأتوا بنا إلى هنا، ولم أتوقع منهم رافة بنا أو شفقة، بل تذكرت ما أخبرنا به القرآن الكريم عن الطغاة وسلوكهم في حالات مماثلة.

وماذا يقول القرآن في هذا الأمر؟

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

واستغرق تحسين قليلاً في شرح الآية وتفسيرها لبيشوي، ثم أضاف:

إن هؤلاء طغاة مجرمون لعلهم أسوأ من آل فرعون، وقد أعدموا الرجال على وجبتين، عصر اليوم التالي لأسرنا أعدموا ثلاثة، أما نحن الوجبة الثانية فقد أخرجونا أمس إلى الباحة حيث ربطوا المرأتين، وربطونا إلى الأعمدة وألبسوا رؤوسنا الأكياس السود - استوقفه بيشوي وقد إلتقى في وجهه الغضب والتعاطف والخوف - وسأله: ساعني بالله عليك يا صديقي، لكن أأبدو لك عديم الرحمة إذ أطلب منك أن تصف لي شعورك في تلك اللحظات؟

نعم إن السؤال لشديد القسوة، أما أنت فأعلم أنك لا تقصد به إيذائي، بل تريد أن تعرف بصدق كيف تحدث الأمور هنا، حسناً لقد خفتُ حتى تجمد الخوف وتصلب في شراييني فلم أعد أشعر به، تماماً كما قد يحدث عند شعور المرء بألم شديد لا يُطاق، ثم يتبلد إحساسه بعد ذلك فلا يعود يشعر بشيء، هذا ما حدث لي ومعني، تخيل أنهم قتلوا الرجلين اللذين يقفان إلى جواربي، وكنتُ أتمتم بالشهادتين بانتظار أن تخترق الرصاصات جمجمتي أو صدري من أيِّ اتجاه، كانت مسألة ثوانٍ فقط بيني وبين الموت، لكن صمتاً رهيباً ساد لبرهة، ومرت لحظات أثقل من جبل سنجار نفسه، يُفضّل المرء أن يُقتل آلاف المرات على أن تطول به تلك اللحظات السود،

سمعت أحد أمرائهم يتحدث مع أحد المنفذين عبر هاتفه النقال، وكان هذا يرد بالقول: نعم يا أمير، لدينا واحد هنا وهو قيد الإعدام... سمعاً وطاعةً يا أمير، ثم هتف بزملائه: «توقفوا، لا يطلق أحد النار» ثم تكلموا بكلام لم أسمعه جيداً، وألغى أمر إعدامي في اللحظة الأخيرة.

فتنفس بيشوي الصعداء كأنه هو الذي نجا من الموت، ثم قبض على يد تحسين كمن تنبّه فجأة إلى أمر شديد الأهمية كان قد نسيه، وسأله:

ماذا حدث للعجوز أم غالب؟

عندما أسرونا وساقونا في طرقات القرية كنت ما أزال أدفع كرسيها المدولب، لكنّ أحد الدواعش ركمني وألقى بي إلى الأرض وأخذ العجوز وكرسيها، واختار خرابة مظلمة ودفعها إلى داخلها، لقد قتلها اللعين بأشع طريقة يمكن أن تخطر في بالها، بالوحشة والظلام.

صمود

كان الوضع في تلعفر في الأسابيع التي سبقت الاجتياح خطيراً جداً، لا سيما في المناطق الشيعية، تماماً كما كان يحدث في بغداد وغيرها من مناطق الجنوب، كان الدواعش يشنون حرب إبادة ضد المدنيين، فيرسلون سياراتهم المفخخة وانتحاريهم ليقتلوا الناس في كل مكان، في الشوارع والأسواق والمدارس، في الأعراس وفي سرادقات العزاء، لكنّ الحياة لم تتوقف يوماً، وتلك سنّة كونية من سنن الله في الخلق.

في اليوم الثالث من وجود بيشوي في تلعفر دعتة نهلة لزيارة منزل أهلها في حي المعلمين ليتعرف إلى أسرتها المكونة من والدها وشقيقها الصغيرين محمد ومصطفى وهما في عمر الدراسة الابتدائية وشقيقتها الشابة أمينة، وكانت قد حدثتهم عن صحفي إيطالي شجاع يزور العراق للمرة الثانية؛ أما زيارته الأولى فكانت عام ٢٠٠٤، وقد كتب حينها بإنصاف عمّا كان يجري، لا سيما حين كان الإرهاب يدق أسافين الفتنة بقوة بين طوائف الشعب العراقي وأديانه وقومياته، وعرضت عليهم بعض مقالاته وتحقيقاته عن تلك الحقبة بعثهم إليها بالإيميل، لبّى الدعوة والتقى والدها وأسرته، وقبل أن يتناولوا الغداء دار حديث لكسر الجليد بين الضيف

والأسرة، فسألوه عن إيطاليا وأحوالها وتولت نهلة الترجمة، لكن سؤال أمينة باغته:

اسمك غريب، لا يبدو إيطالياً؟

ابتسم واتسعت عيناه للسؤال، وعلّق مشيراً إليها بسبابته:

أنت فتاة شديدة الذكاء، حسناً، لست إيطالياً خالصاً، أنا نصف إيطالي نصف مصري، جدي لوالدي كان شماساً من عائلة قبطية مصرية ملتزمة بخدمة الكنيسة واسمه بيشوي وهذا الاسم ليس إيطالياً حقاً، بل هو من الأسماء الدينية لدى الأقباط المصريين حصراً، في عام ١٩٣٤ التقى جدي التي كانت في زيارة لمصر حينما دخلت كنيسته في أحد القداديس، وتعارفاً هناك، ويبدو أنها سحرته فأحبها بشدة، ولأجلها خلع مسوحه وطيلسانه، رغم أن أسرته كانت تأمل أن تكرسه قُمصاً للخدمة الكهنوتية، وترك الكنيسة وهاجر معها إلى إيطاليا، ثم تزوجا هناك واستقرا وأنجبا أبي وأعمامي وعماتي، رأيت يا عزيزتي أمينة، أنا قريبكم نوعاً ما، أنا نصف مصري.

ثم أردف وهو يوجه نظره إلى الحاج حسين ونهلة:

الآن حان دوري في الأسئلة، أعلم أن داعش هي وجه آخر من وجوه القاعدة، العقيدة هي ذاتها، اما الاختلاف فشكلي، وأعلم أنهم منتشرون ولهم وجود قوي في هذه الأنحاء، فكيف تعاملوا معكم أنتم الشيعة في ما مضى والآن؟ هل اضطهدوكم؟ وهل قاومتموهم؟

أجابه الحاج حسين بعد أن تمعّن في السؤال وهو يرشف شايه:

سأروي لك حادثتين فقط من مئات الحوادث التي حصلت هنا، قد تحييان عن

سؤالك، لدينا جيران كثير في شارعنا هذا من الإخوة السنة، وبيننا وبينهم مصاهرة وجيرة ومودة، ولم يحدث أن أسأنا لهم أو أسأنا الظن بهم أبداً، رغم أن القاعدة وداعش كانتا ترفعان شعارات الدفاع عن أهل السنة وتقتلانا تحت هذا الشعار، الغريب أن أكثر من نصف هؤلاء الجيران بعد عشرات السنين من العشرة الطيبة والجيرة الحسنة انقلبوا دواعش وأصبحوا دمويين فجأة لا تدري لماذا وكيف، ثم وجهوا حقدهم وكرهيتهم صوب جيرانهم الأقربين، في إحدى الليالي هربوا نساءهم وأطفالهم إلى مزارع يملكونها على أطراف تلعفر، وتخلفوا هم في الحي لأنهم كانوا قد خططوا لتفجير حزام ناسف على عرس، وكانوا يختارون الأعراس أو المآتم لتنفيذ جرائمهم الوحشية لأنهم يريدون إيقاع أكبر عدد من الضحايا، ولعلك تعلم أن الناس في مثل هذه المناسبات يتجمعون بكثرة ويأتي الأقرباء والأصدقاء والجيران، وكان العرس لشابٍ وحيدٍ لعائلة شيعية من أقاربنا، وكانوا يعتزمون التنفيذ نهار اليوم التالي وهو موعد العرس، وفعلاً نجحوا في إدخال الانتحاري البهيمه إلى وسط المحتفلين، وإيغالاً في القتل والترويع توجه إلى العريس نفسه وفجر حزامه قربه، فاستشهد على الفور قرابة ٤٠ إنساناً بين رجل وامرأة وطفل. (قاطععه بيشوي بوجل):

وهل قُتل العريس أيضاً؟

تدخلت نهلة في الحوار وردت هي بحكم اطلاعها المهني على مَنْ استشهد في تلك الحادثة الرهيبة ومَنْ جرح:

لم نجد من أشلائه ما يُمكننا من التعرف عليه، لقد اقترب الحقيير منه واحتضنه وحدث الانفجار، الشيء الوحيد الذي عثرنا عليه بعد بحث طويل هو جزء من كف

يده وفي بنصرها خاتم الزواج.

أردف الحاج حسين:

تخيّل كيف يقتل الشيطانُ الظالم ملاكاً مظلوماً فيموتان معاً، ويقدان على بارئهما في لحظةٍ واحدة! ما أعظم حلمك يا الله.

كان يبشوي يصغي بانتباه شديد، لكن عينيه دمعتا حينما سمع حكاية الشاب العريس، ولم يسبق لنهلة أن شاهدهته يدخن، لكنه بلا استئذان أخذ سيجارة من علبة كانت أمام والد نهلة وأشعلها واستغرق في صمت حزين فادح.

واصل الحاج حسين حديثه:

وبعد أن كشفت الشرطة ضلوعهم في ذلك العمل الإرهابي، أرسلوا دورية لاعتقالهم، فأطلقوا النار على الدورية وقتلوا عنصرها وظلت جثتاها مطروحتين في العراء لا يجرؤ أحد على إخلائها لأن قنصاً داخل المنزل يقتل كل من يقترب، فانبرى الحاج حسن وهو زوج ابنة أخي ويعرف الناس عنه مروءته وشجاعته وشراسته، فقال وهو يشدّ على أخمص بندقيته البرنو ذات الطلقات الخمس والملقم اليدوي: عار علينا أن يقتل هؤلاء الأوباش شبابنا، ثم نعجز حتى عن استنقاذ الجثامين منهم، والله لأثأرنّ منهم ولو دفعت حياتي ثمناً لذلك، فمن يأتي معي؟ أنا ذاهب في كل الأحوال، فتطوّع ستة من الشباب وذهبوا ليلاً مع الحاج حسن وحاصروا منزل الدواعش ثم دخلوه بعد قتال عنيف وأخرجوا من بقي من الدواعش حياً وقتلوه، لكنهم وجدوا داخل المنزل اسلحة وأعتدة وأحزمة ناسفة معدة للتفجير، وراية سوداء تحمل شعار داعش في غرفة الضيوف.

في هذه الأثناء جيء بالغداء، فتوقف الكلام، لكن بيشوي طلب من الحاج حسين حالما انتهوا من الغداء أن يُكمل حديثه، فاستأنف:

والحكاية الثانية حدثت حين اجتمع السادة الموسويون ذات مرة في منزل شيخهم في منطقة القلعة، ليناقشوا أحد شؤونهم العشائرية، فتسللت إليهم سيارة مفخخة ودخلت عليهم الى منزل الشيخ، ولم يفلح حراسه في منعها، فتفجرت وقتلت معظم الموجودين هناك، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فحين تجمع الناس لنجدة الجرحى وإخلاء جثث الشهداء، أقبلت سيارة أخرى لتجهز على الباقين، لكن بعض الحرس المتمرسين على السطوح أطلقوا عليها نيراناً كثيفة حتى تمكنوا من تفجيرها.

عندما خرج بيشوي عصر ذلك اليوم، طحنت روحه أسئلة لم يجد لها إجابات شافية؛ سأل نفسه لماذا لا يعرف الناس في الغرب كل هذه الحكايات؟ ولماذا يعتقدون أن كل المسلمين متطرفون؟ أليس الشيعة مسلمين؟ وما هي القاعدة وداعش تستهدفانهم وتشنان عليهم حرب إبادة، فلماذا يتجاهل الإعلام الغربي تحديداً هذه الحقيقة؟ لماذا يُتركون ضحايا هكذا خارج أي إطار عدالة دولية، وخارج أي حماية أممية أو حتى تعاطف إنساني؟

كانت الأيام التي شهدت تلك الأحداث أيام حصاد القمح، وقد شهد ذلك العام وفرة غريبة، حتى أن الفلاحين في تلعفر وفي عموم العراق لم يكونوا يجدون أماكن لتخزين محاصيلهم، فباعوا ما باعوا للدولة وبقي لديهم الجزء الأكبر، وكان بعض أهالي تلعفر الشيعة، فلاحين وغير فلاحين، قد أرسلوا عائلاتهم إلى سنجار

وبقي الرجال لكي يقاوموا ويحموا أملاكهم وبيوتهم ومزارعهم ومخازن غلاتهم، ذات مرة قال لهم الشيخ في الحسينية: عندما تدافع عن بيتك أو مالك أو عرضك أو مدينتك فإنك إنما تدافع عن الوطن، وما الوطن إلا هذه الأشياء، ولذلك بقي الحاج حسين الهبائي والد نهلة هو أيضاً مع الشباب الآخرين، وكان معهم بعض مفارز الجيش والشرطة المتبقية هناك، فتوزعوا على مناطق متعددة، اقاموا نقاط سيطرة ومراقبة، تترسوا بما توفر لديهم من جدران وأبواب حديدية ومقاطع كونكريتية، واحتفظ كل منهم بمؤونة كافية وخننوا بعض المياه لأنهم كانوا يتوقعون أياماً سوداً قد يحاصرون فيها من كل الجهات، وعليهم أن يصمدوا أطول مدة ممكنة.

ذات مرة تجمّع شباب كثيرون في ديوانية الحاج حسين قبل انسحاب الأهالي إلى سنجار، وكان بعضهم متردداً بين البقاء والصمود وبين المغادرة والنجاة بأنفسهم وعائلاتهم، وعندما احتدم النقاش بين الفريقين طلب الحاج حسين أن ينصتوا إليه وقال لهم مذكراً: أنسيتم شعارنا المقدس، الذي جاء على لسان الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام في واقعة الطف حين قال: «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ لكم إقرار العبيد، هيهات منا الذلة» فاختاورا أي الفريقين تسلكون؟ طريق الذلة أم طريق أبي عبد الله عليه السلام؟

وهكذا ببضع كلمات يقعن من العقيدة الشيعية موقع القلب من الجسد استطاع أن يجعل فريق المعارضين لفكرة البقاء يُطرقون إلى الأرض خجلاً، وينظر بعضهم إلى بعضهم الآخر في حياء، كمن ارتكب شيئاً يُوجب العار، لقد غير آراء معظمهم وجعلهم يتبنون فكرة بقاء الرجال وصمودهم وإرسال النساء والأطفال إلى أماكن آمنة كسنجار وغيرها، وبعض الجنود والشرطة ممن تسكن عائلاتهم في

مناطق ومحافظات أخرى قالوا للحاج ورهطه: نحن سنسحب، فماذا ستفعلون؟ ألن تنسحبوا؟ فردّ عليهم الحاج ومن معه: عن أي انسحاب تتكلمون؟ ألم تسمعوا بفتوى الجهاد الكفائي التي أعلنها السيد السيستاني؟ الانسحاب يعني أننا نستحق من الله ما يجري علينا، نحن باقون هنا، أمّا النصر وأمّا الشهادة، وهل يبقى للحياة معنى إذا بقينا أحياء وأرضنا وأموالنا وبيوتنا مغتصبة؟ وإذا تخلّينا كلنا فمن سيبقى ومن سيحمي؟ ورغم أن الجنود وعناصر الشرطة شعروا بالخجل، لكنهم أُسقط في أيديهم حين شاهدوا ضباطهم ينسحبون، وقد فكروا أن عليهم أن يجموا أسرهم في المقام الأول، وهروب ضباطهم كان نذيراً بطوفان أسود آتٍ لا محالة، وكان القنوط بادياً على الناس والأشجار والشوارع، فانسحبوا كمن يتجرع -راغماً- سماً في شرابه.

وهكذا نصب الحاج حسين والد نهلة قبل أيام من الاجتياح برجاً صغيراً على سطح منزله الذي يقع على مفترق شارعين ويشرف على الجهة التي يأتي منها الإرهابيون عادة، وكان قد خزّن سلاحاً وعتاداً بكمية لا بأس بها، صحيح أنه كان يملك أراضي مزروعة قمحاً ومخازن غلال ملاءى، لكنه كان مؤمناً بأن الوطن هو كل ما نحبه ونحرص على صيانتته، الوطن ليس ما تسميه الصحف والفضائيات بهذا الاسم، بل هو رائحة الأرض وبيادر القمح وعيون الناس المطمئنة وأعيادهم وأصوات أذانهم وأجراس كنائسهم وصوامعهم، إنه شيء يستغرق الوجدان كله فلا يعود ممكناً تحديده في إطار أو وضعه داخل تعريف لغوي محدود، وقد حرصت نهلة وشقيقتها أمينة على البقاء مع والدهما، وأرسلوا الولدين الصغيرين مع خالاتهما إلى سنجار، أصرت نهلة على البقاء لأنها الوحيدة القادرة على معالجة المرضى والجرحى في المركز الصحي الصغير، وبقيت أمينة لتؤمن لوالدها الطعام وما يلزمه للبقاء والصمود على مرصده الذي أنشأه على سطح المنزل.

عربة الموتى

زحفت داعش من كل الجهات نحو تلعفر، أو نحو أحيائها الشيعة تحديداً، لكن الزحف من الجنوب هو الذي حسم الأمر لصالحها، فقد أحكم الحصار حولها من ثلاث جهات، حتى الطريق الوعر الذاهب إلى دهوك الذي كان المنفذ الوحيد لم يعد آمناً، قالوا في الأخبار أن الحكومة أرسلت اللواء أبو الوليد القائد الميداني اللواء الذيب الذي قارع الإرهاب في الموصل وحقق نتائج هائلة في السابق، إلا أنه لم يستطع هذه المرة أن يحدث أيَّ فارق في المعادلات على الأرض، مثلما كان قادة السياسة في بغداد يأملون، وأسقط في أيدي الناس، ونما اليأس وتكاثر كدغل شوكي، بينما عقل رجال كثيرون كالحاج حسين ورهطه أرجلهم عند مراصدهم لثلاث يضاعفوا بذات معركة حامية، ولثلاث تحدتهم النفوس الأمارات بالسوء بأن يهربوا طلباً للنجاة، لقد وقَّعوا بذلك عقداً بدمائهم على الموت دفاعاً عن كل ما يحبون في هذا الوطن.

قبل يومين من الاجتياح الداعشي كانت نهلة ما تزال في المركز تعالج من يؤتى بهم مرضى أو جرحى إلى مركزها، وتتابع إجراءات تسجيل الوفيات لمن يموتون لأسباب طبيعية أو لمن يستشهدون في القتال ضد داعش، وكانت أمينة ما تزال تتابع

ما يستجد من أخبار عبر نشرات القنوات الفضائية كلما توفرت كهرباء في المنزل، لكنها لا تنسى أن تشد من أزر أبيها مهما كانت الأوضاع سيئة، تصعد إليه بين حين وآخر بقدر شاي أو بصينية طعام فتجده يراقب الأفق من مزغله وهو يدخن، وكان يضع إلى جواره راديو ترانزستور ويسمع الأخبار باستمرار، كان يحدثها أو يصغي إليها وهي تحدثه دون أن تغفل عنه عن المراقبة، ويقول لها أحياناً:

إنهم يأتون من غفلتنا، من نخاذل بعضنا وتواكلهم، ولذا علينا أن نظل يقظين دوماً.

نزل ذات مرة مقطب الوجه مغموماً ونادى أمينة، وقال لها:

اتصلي بنهلة فلتأتي حالاً.

هي على وشك الوصول، كلمتني قبل قليل، خيراً يا أبي؟ ما الأمر؟
ستحدث عندما تأتي نهلة.

عندما وصلت نهلة جلس الأب وجمع ابنتيه في غرفة الضيوف وقال لهما:

لم تعد تلعفر مكاناً آمناً لكما، يجب أن تخرجا إلى بغداد، واذهبا من هناك إلى النجف أو كربلاء بأيّ طريقة، المهم أن تظلا في مكان آمن ريثما تنجلي الأمور هنا.

قالت أمينة بقلق:

ما الذي جرى يا أبي؟ هل حدث شيء خطير؟

الأمور تتسارع، ولا ندري ماذا سيحدث غداً، أنا وكلّ الرجال المتبقين هنا بقاؤنا ضروري كما تعلمان، أما أنتما فلم يعد لبقائكما من سبب وجيه.

شعرت نهلة أن ثمة أمراً لا يريد والدّها الإفصاح عنه أمام أمينة، ربما لكي لا

يقلقها ويشعرها بالهلع، قالت لشقيقتها:

أمينة، أنا جائعة، هلا أعددت لنا الغداء.

نهضت أمينة متثاقلة، وقصدت المطبخ، وتظاهرت نهلة بأنها نهضت لتغير ثيابها، لكنها تباطأت عندما تيقنت أن أمينة انغمست في عمل الغداء كلياً، وعادت إلى أبيها في غرفة الضيوف:

أخبرني الحقيقة يا أبي، هل استجدّ شيء يدعوك إلى إخراجنا من هنا؟

ابنتي نهلة، تعلمين مدى حبي لكم جميعاً، لكن الأمور أصبحت خطيرة، أتعلمين أن الدواعش أقاموا سوقاً يبيعون فيه النساء السبايا أو يتبادلونهن؟ سمعت ذلك الآن في نشرات الأخبار.

لكن هذا ليس جديداً عليهم يا أبي.

نعم، لكن الحديد أنهم باتوا على أبواب تلعفر، وقد يدخلونها في أيّة لحظة، أنا عن نفسي سأقاتلهم حتى الموت، لكن ماذا تتخيلين مصيركما لو دخلوا؟ القتل أو السبي؟ ولا أريد لكم أيّاً من هذين المصيرين.

أنا عن نفسي لا أستطيع ترك المركز ومرضاي وجرحاي، سيموتون لو تركتهم، لكن لا بأس أن نخرج أمينة من هنا، نرسلها إلى بغداد أو دهوك أو أي مكان آمن.

ماذا ستفعلين لو دخلوا؟ من يحميك ويحمي المركز؟

الله موجود يا أبي، وسأقاتلهم، لدي رشاشة كلاشينكوف في المركز، صحيح أنني بنت، لكنك تعرف أنني بمثابة عشرة رجال.

فلنفكر إذن في طريقة نرسل بها أمينة إلى مكان تآمن فيه ونآمن نحن عليها أيضاً.

إنهم يحاصرون تلعفر من ثلاث جهات، ولم تبق إلا الجهة الكردية، والأكراد كما تعلم لا يسمحون لأحد من تلعفر بالعبور إلى مناطقهم، لكننا سنجد طريقة ما حتماً. قبل أن تغفو في تلك الليلة العصبية ظلت تفتش عن مخرج أو طريقة لإنقاذ أختها، ثم فجأة تذكرت العقيد ريبوار حمه أحد ضباط البيشمركة من معارفها، وكانت قد أنقذت حياة أخته وطفلها من موت وشيك عندما جازفت وأجرت لها عملية ولادة قيصرية في ظروف بالغة التعقيد إذ كان حبل المشيمة قد التفت على عنق الجنين وتعسرت الولادة كثيراً، فظل يحمل لها معروفاً في عنقه.

كانت وحدته ترابط شمال الموصل على الطريق المؤدي إلى دهوك، اتصلت به وشرحت له الموقف، فوعدها أنه سيساعدها بطريقة ما.

وفعلاً اتصل بها بعد الواحدة ظهراً وقال لها إن شاحنة تحمل جثث ضحايا من الكاكائيين وبعض القرويين الأكراد ستمر صباح الغد عبر طريق سنجار، تلعفر، دهوك، وثمة تنسيق مع الأطراف كافة على السماح بمرورها، وأخبرها أنه اتفق مع سائق الشاحنة أن يتوقف عندها في المركز لترسل معه ما لديها من جثث تعود لمواطنين أكراد، ويمكنها أن تتدبر طريقة لتهريب شقيقتها مع الشاحنة.

لم تتصل نهلة بأهلها لتبلغهم بهذا الأمر خوف أن يتسرب الخبر وتفشل الخطة، أتمت جرد الجثث الثلاث، وكان بينها لحسن الحظ جثة تعود لرجل كردي من أهالي كويسنجق جاء يزور اقاربه في حي العلوّة واستشهد في قصف بالهاونات على ذلك الحي، وهيأتها للترحيل في الشاحنة، وحين عادت إلى بيتها قرابة الساعة الرابعة عصراً أبلغت والدها بالخطة أولاً، فأنست عنده موافقة على مضض، إذ قال لها:

صحيح أن الطريقة مرعبة، لكن لا حلَّ آخر في أيدينا، فأنت تخرج أمينة حية مع الجثث خيرٌ لها من أن تصبح واحدة منها، أو سبية تباع وتُشترى في أسواق نخاسة الدواعش الجبناء.

إذن تعال وساعدني لنخبرها أولاً أن عليها أن تغادر تلعفر، ثم فليساعدنا الله كيف سنقنعها بطريقة المغادرة المرعبة.

المفاجئ بالأمر أن أمينة لم يعينها أمر شاحنة الجثث ولم تبدِ امتعاضاً أو خوفاً منها، بل كانت معترضة بشدة على موضوع مغادرتها تلعفر، قالت لهما:

لماذا عليّ أن أغادر بينما تبقيان هنا، سأبقى معكما وليحدث ما يحدث، فليست روحي أعز من روحيكما.

بنيتي، لا أخاف عليك الموت قدر خوفي عليك من السبي، أتريدين أن ننكس رؤوسنا بعد أن ظلت شاحنة طوال عمرنا؟

حاش لله يا أبي، لكنني أتأسى بسيدتي زينب عليها السلام، أفنحن أعز على الله من نساء آل بيت النبوة؟

بكى الحاج حسين وهو يستمع إلى ابنته تقول هذا الكلام، وبكت نهلة، وساد صمت قصير، لكنهما في النهاية أفتعا أمينة أن بقاءها حية سينقذ الأسرة من الفناء، فعلى الأقل لكي يبقى في العائلة من يرعى الصغيرين محمد ومصطفى.

فجر اليوم التالي صلّت العائلة صلاة الفجر جماعة، وودّع الحاج حسين ابنته أمينة بالدموع والدعاء، وفي الساعة السابعة صباحاً كانتا في مركز الشهيد الصدر،

هَيَّأت نهلة جثة الرجل الكردي، وألصقت بطاقة على كيس الجثة كتبت فيها: الاسم «نوزاد حاجي سعيد، العمر ٣٨ عاماً، القومية كردية، سبب الوفاة: تهشم الجمجمة وأجزاء من الفقرتين العنقتين الأولى والثانية جرّاء شظايا قذيفة هاون في الرأس والعنق.. قصف عشوائي»، وهَيَّأت كيساً آخر لأختها كتبت عليه لمزيد من الترمويه: «شلير حاجي سعيد، ٣٤ العمر ٢٩ عاماً، وكررت باقي التفاصيل عدا سبب الوفاة إذ كتبت: نرف داخلي جرّاء شظايا قذيفة هاون في المعدة والكبد».

كان انتظار وصول الشاحنة أمراً مريراً، كانت أمينة تنظر من النافذة وتفكر:

كيف للإنسان انتظار أن تأتيه الحياة مع شاحنة موتى؟ الغريب أنني لست خائفة من رفقتهم، وهذا الأمر يخيفني! ألهذا الحد بلغت بنا قسوة القلوب؟ لقد أوقفنا هذه الحياة التعيسة على حافاتها الخطرة مراراً ثم ركلتنا بقوة فهوينا حتى لم يعد شيءٌ يخيفنا! ويا لها من مفارقة سوداء، فقد حاصرنا الأحياء وقصفونا وقتلونا وها هم القتلى والموتى سيهبون لنجدتنا؟ إننا نتعمد بالآلام والأحزان كل يوم، ثم نموّه أنفسنا بالموت لكي ننجو منه.

وصلت شاحنة الموتى قرابة الساعة الواحدة من بعد الظهر، وأسرعت نهلة وانتخت بشقيقتها في غرفة الجثث، لوثت - وهي تبكي بحرقة - ثيابها بدماء كانت تنز من إحدى الجثث، وأدخلتها في الكيس وتركت لها فم الكيس مفتوحاً، ومدتها على الأرض، جاء السائق الكردي وسلم عليها، قائلاً:

أنا طاهر من طرف عقيد ريبوار، جئت من أجل الجثث، وهذا كتاب تسهيل المهمة، تناولت الكتاب من يده، وقالت له:

مرحبا بك كاكا طاهر، لدي جثتان، هما (وأشارت بيدها إلى الكيسين).

خانم، أني يعرف شنو قصة، عقيد ريبوار خبرني كلشي، وين أختك؟ حتى أني يفهمه شنو يسوي بالطريق.

أخبرهما السائق أن الأفضل والأكثر أماناً لها أن تبقى مع الجثث في حوض الشاحنة الخلفي، وبمجرد عبور حواجز الدواعش ثم النقاط العسكرية للبيش مركبة ودخوله إلى دهوك، فعلى أمينة أن تستبدل ثيابها الملطخة بالدماء وتنزل من الشاحنة قبل الوصول إلى مركز تسليم الشهداء الملحق بمستشفى دهوك العام.

دخلت نهلة إلى المركز وجلبت كيساً وضعت فيه من ثيابها قميصاً فضفاضاً وتنورة طويلة وحجاباً، وسلمتها للسائق، فأخفاها في صندوق القفاز «الجمجمة» وقال لها: اطمئني، إذا عثروا عليها وسألوني سأقول:

هذه ثياب اشتريتها لزوجتي.

حملوا جثة الرجل، ثم صعدت أمينة ولبست الكيس داخل حوض الشاحنة الخلفي وتمددت في النهاية القريبة من السائق، وفي حدسها أنهم حين يعبرون الحواجز سيجري التفتيش على الجثث القريبة من البوابة الخلفية للشاحنة، وغالباً ما يسأم العنصر المكلف بالتفتيش فيغادر سريعاً ويسمح بالمرور.

في أول حاجز لداعش تسارع نبض أمينة عندما سمعت أصواتهم، ومن ثقب صغير في الكيس من جهة الرأس ظلت تراقب ما يجري، وقد حدث بالضبط ما توقعته، صعدها إلى الشاحنة عنصر مسلح، فتسارع نبضها أكثر، وحاولت كتم أنفاسها

لثلاثا تلفت انتباهه، ألقى نظرة سريعة على الجثث القريبة من البوابة، حاول أن يتقدم أكثر، لكن الجثث المتراسة على الأرضية لم تسمح له، ولم يرغب في الوطء فوقها لثلاثا يلوث ثيابه ونعليه، قلب جثتين من الصف الأول وفتح أحد الكيسين فنفّته الرائحة العطنة، فزفر الهواء الذي تنشقّه بسرعة وبصق مراراً، ثم قال للسائق:

اذهب من هنا بسرعة، هيا.

انظروا يا أخوتي كيف أن تكاتفكم ووحدتكم وأنتم موتى منعت هذا الوحش من افتراسي (حدّثت أمينة جيرانها) فما بالكم تفرقتم أحياء عن بلادكم وسمحتم للغرباء أن يعيشوا فيها فساداً وقتلاً وترويعاً!!

ولم يختلف الأمر كثيراً في الحاجزين الآخرين، أما في حاجز البيشمركة فقد تكرر المشهد نفسه، لكنهم أكثر من السؤال والجواب مع السائق، ودققوا في أوراقه، ثم سمحوا له بالمرور.

بعد ثلاثين كيلومتراً تقريباً، حين أصبحت الشاحنة على مشارف دهوك مال السائق إلى مطعم سياحي غير مكتمل البناء، وكانت الساعة قد قاربت الرابعة عصراً، نادى أمينة وحثها على أن تسرع في تبديل ثيابها داخل المبنى الخالي، بينما انشغل هو بفحص الهواء في إطارات سيارته، وفتح غطاء المحرك ورشّ بعض الماء على المشبك الحراري، ريثما عادت إليه في الثياب النظيفة.

ركبت إلى جواره في قمرة الشاحنة، وانطلقا، وحين وصل إلى أحد التقاطعات داخل المدينة قالت له أمينة:

أنزني هنا عمو طاهر، الصراحة ما أعرف شلون أجازيك، لقد جازفت بحياتك وأنقذتني، جزاك الله خير الجزاء، ألف شكر.

هل لديك مكان تذهين إليه؟

نعم، لا تقلق عمو، عندي أقارب هنا.

مدّ الرجل يده وأخرج من محفظته بعض المال، لكنّ أمينة ردتّه بلطف وشكرته كثيراً، ونزلت، لوّح لها بيده محيياً، وانطلق بالسيارة، وظلت تلوّح له حتى غاب عن نظرها.

الهروب

مرت الساعات عصبية وبطيئة، كانت نهلة تنتظر بفاغ الصبر أن يردها اتصال من أمينة تطمئننها فيه على وصولها بأمان إلى دهوك، وفي الأثناء رنَّ هاتفها لكن لم تكن أمينة هي المتصلة بل رقم غير معرّف، ردت نهلة بسرعة لظنها أن أمينة استعانت بأحد ما واتصلت من هاتفه، لكن كان الصوت على الطرف الآخر صوت رجل يتحدث بلهجة بدو الشام، قد يكون أردنياً أو سورياً أو من فلسطين، قال لها بنبرة غاضبة:

أنت نهلة العفرية، أليس كذلك؟

من المتكلم رجاءً؟

لا تسألني، أجبني على سؤالي فقط، ألم نبغك أنك ستكونين حلقة الوصل بيننا وبين حكومة الروافض بشأن الأسير الجاسوس الإيطالي؟

نعم أنا نهلة، وأقسم أن الرجل ليس جاسوساً، نحن لا نتعامل مع الجواسيس. اسمعي أيتها الراضية الكافرة، هذا آخر إنذار لكم، إن لم تطلق الحكومة الصفوية سراح أسرى الدولة الإسلامية، فسنقتل هذا الجاسوس الكافر، ولا تلوموا إلا أنفسكم.

حسناً، أريد أن أتأكد من أنه لا يزال حياً، ذلك هو شرطي الوحيد لإيصال الرسالة.

وسارعت بإغلاق الخط لتبقى هي في موقع القوة بعد أن أملت شرطها عليهم، لقد خشيت أن يتهدج صوتها أو أن تنهار باكية أثناء المكالمة لشدة الضغوط التي تكابدها، ولا سيما وهي لم تطمئن بعد على أمينة .

رَنّ هاتفها مرة أخرى، وكان المتصل هو الرقم ذاته، لكنها لم تردّ، أرادت أن تُظهر لهم بعض القوة، وأن تجعلهم ينصاعون لشرطها .

انتهى دوامها في المركز وعادت إلى البيت وفي الطريق اتصلت بها أمينة وأبلغتها بصوتٍ باكٍ أنها وصلت بسلام إلى دهوك، وأنها الآن في منزل صديق والدهم أبي نوزت، لم تتمالك نهلة أعصابها وانهارت إلى الأرض باكية، وهي تردد: الحمد لله والشكر، الحمد لله، نهضت وأسرعت إلى البيت لتطمئن والدها، وهناك صليا ركعتي شكرٍ لله على نجاة أمينة، قال لها والدها وهو يسترجع ذكرياته:

أبو نوزت هذا جمعني وإياه أيام عصبية، كنا في الجبهة أيام الحرب العراقية الإيرانية في قاطع سربيل زهاب، والحرب مشتعلة كأنها الجحيم، أذكر أنها كانت أيام شهر رمضان وكنتُ صائماً، كان القتال والقصف يهدآن قبل الإفطار بساعتين تقريباً، وكان خضر هذا الذي أصبح لاحقاً أبو نوزت بعد أن تزوج، يتركني نائماً في الملجأ، وينهض هو ليعد لي الفطور ثم يوقظني عندما يحين موعد أذان المغرب، كان يصوم معي ويفطر معي، وهو إيزيدي، يا لتلك الأيام التي على قسوتها بقي منها شيء يعطر الذاكرة، بقيت منها صداقة الرجال عند تخوم الموت.

بعد قليل رنّ الهاتف فإذا بالرقم غير المعرف نفسه، ترددت نهلة وهي تتطلع إلى شاشة الهاتف، ثم ردت، فإذا بالصوت يأتيها خائفاً وحزيناً:

HEY NAHLA ..IT,S ME .. I AM PETER BISHOY (مرحباً نهلة.. إن المتحدث هو أنا.. بيتر

بيشوي)

ردّت نهلة بقلق ولهفة:

مرحبا بك سيد بيشوي.. طمئننا هل آذوك؟ أنت بخير؟

...WELL .. I AM FINE TILL NOW حسنأ، أنا بخير حتى الآن (ولم يكمل بيشوي

كلامه)

ها، سمعتيّنو لصاحبكي، خلص بقى.. تغوحي تبليغي الغسالي (كان المتحدث داعشياً موصلياً هذه المرة، ومفاد حديثه بعد الترجمة: هل سمعتِ صاحبك؟ عليك إذن أن تذهبي وتبليغي الرسالة) وأغلق سماعة الهاتف.

كان الحاج حسين يتابع ابنته ومكالمتها، سألها:

ما الأمر يا ابنتي، هل حدث مكروه للسيد بيشوي؟

أول أمس اختفى بيشوي من تلعفر، ويبدو أنه رافق سيّدة مصابة إلى مستشفى سنجار، لكن الدواعش اعترضوا طريقه فأسروه وقتلوا السيّدة المصابة وسائق الإسعاف والمتّرجم، وقد اتصلوا بي مرتين ليبلغوني بمطالبهم مقابل عدم قتله.

لا إله إلا الله، رحم الله الشهداء المظلومين، واللعنة على مَنْ قتلهم، أما هذا

الغريب المسكين فكيف سينجو من هؤلاء الوحوش؟ وما مطالبهم بحق الله؟

يريدون أن تطلق الحكومة سراح مَنْ لديها من الدواعش، أو على الأقل عقد صفقة مرضية لهم مقابل الإبقاء على حياة بيشوي.

وماذا ستفعلين؟

اتصلت بالضابط المكلف بحمايته أمس كما طلبوا، وسأتصل به الآن أيضاً، ليس بيدي شيء آخر أفعله.

النقيب مهدي قال لها إنه أوصل ما أبلغته به أمس إلى استخبارات الشرطة الاتحادية في بغداد، وسينقل ما جرى اليوم من اتصال ومن تأكيد هوية بيشوي وبقائه على قيد الحياة إليهم، وهم بدورهم سيوصلون ذلك إلى الحكومة، وعلينا أن ننتظر الرد.

في اليوم التالي عندما ذهبت نهلة إلى المركز الصحي لم تجد سوى المضمّد سلوان، أما بقية الكادر فيبدو أنهم غادروا تلغفر تحت ضغط الأخبار المرعبة، والمناوشات التي بدأت على أطراف المدينة، الجرحى غادروا أيضاً، اصطحبهم ذوهم لأن بقاءهم يعني الموت المحتم أما على أيدي الدواعش إذا دخلوا المدينة، أو جوعاً وعطشاً ووجعاً في حال لم يبق أحد للعناية بهم، يا للهول، لقد وجدت نفسها والمضمّد سلوان الوحيدين الباقين، مع جثة واحدة، لأن الجثة الثالثة - وكانت لامرأة استشهدت بعد أيام من إصابتها في حادث شاحنة الطحين بشظايا قاتلة في الحوض والأمعاء الغليظة - جاء ذووها وأخذوها لتدفن في مقبرة السادة الموسويين (الجعافرة).

قال لها سلوان بحزمٍ رجلٍ ذي مروءة:

لا ضرورة لوجودك بعد الآن، ثم إننا لم نعد نملك في المركز أي شيء يمكن أن نعالج به المرضى أو الجرحى، هذا إذا بقي من الناس من يمكن أن يراجع المركز! وأطمئنك أنني سأبقى هنا جهد استطاعتي، لكن إذا ضاقت الأمور ولم تعد لي ضرورة هنا فسأذهب لأكون مع الشايب والعجوز، ولدي مسدس ورشاشة في البيت، وسأقاتل، ألسنا نقول في المثل الشعبي: لمن تريد الحيل يا أبو سكينه؟

حينما عادت إلى البيت ذلك اليوم لاحظ الحاج حسين الوجود على قسماات وجهها، سألتها: ما الخبر؟

لم يبقَ معي في المركز سوى المضمّد سلوان، ولولا أنه وحيد والديه العجوزين لكان غادر هو أيضاً، لكنه لا يستطيع اصطحابهما في طريق الهروب الخطير، ولا يستطيع تركهما، لقد ألح عليّ أن أغادر تلعفر، وقال إنه سيبقى جهد إمكانه حتى يصبح البقاء مستحيلاً.

علّق الحاج حسين:

أتفقّ معه تماماً، بقاؤك لا داعي له بعد الآن، المدينة شبه فارغة من سكانها، والقذائف التي تتساقط على أطراف تلعفر تنذر بمزيد من الموت والدمار القادم لا محالة، نحن الرجال ليس أماننا إلا الصمود والقتال حتى الرمق الأخير، أما أنت وكل النساء فيجب إخلاؤكن فوراً.

دعني أبقَ معك، كيف ستأكل وتشرب وأنت تراقب طوال الوقت من مزاغل

برجك؟ واذا اشتد القتال فماذا ستفعل؟

لا تحملي هم هذا الأمر، الله موجود، ولديّ هنا أرزاق جافة، معلبات وأشياء أخرى.

على مضض اقتنعت نهلة بفكرة الخروج من تلعفر، لكن السؤال هو كيف؟ كان المطار العسكري ما يزال في قبضة الحكومة، وما تزال حامية عسكرية صغيرة تحيط به وتحميه، والطريق إليه ليس بعيداً، ولم يحتله الدواعش بعد، تناهت الأخبار إلى الحاج حسين أن آخر طائرة نقل عسكرية ستقلع عصر ذلك اليوم تحمل بعض المسؤولين ومَنْ نجا من الناس إذا اتسع لهم المكان فيها.

اتصل الحاج حسين بأحد أقاربه النافذين، فقال له قريبه: لتوجه نهلة الآن إلى المطار، الطريق خطر، لكن الوصول ليس مستحيلاً، لتنطلق الآن بلا تأخير، وسأضمن صعودها إلى الطائرة.

بعد قليل جاء حيدر أوغلو سيدلر وهو ابن أخت الحاج حسين وكان قد تربى في بيت خاله، جاء بسيارته الهيونداي بناء على اتصال من خاله، وبسبب العجلة لم يُتَحَ لنهلة أن تأخذ معها أي شيء حتى أوراقها الثبوتية، لقد كان الوقت حرجاً جداً، وأصوات الطلقات والقذائف بدأت تصبح أقرب فأقرب، قال لها حيدر:

لا تصطحبي معك أي حقائب، سيفرون الوزن للناس فقط لا للحقائب والأمتعة.

وحقيبة يدي؟

حسناً هاتيها وأسرعني.

خرجنا بسرعة، وكان عليهما قطع الكيلومترات الستة التي تفصل مركز مدينة تلعفر عن مطارها بأمان وبأسرع وقت، لكن الطريق المعبد كان مكتظاً بالناحيين المتوجهين إلى المطار ليس بالضرورة ليركبوا الطائرة، ولكن لاعتقادهم أن المطار هو آخر المعامل المحمية التي لن يتمكن داعش من احتلالها، ولذلك اضطر حيدر أوغلو إلى أن يسلك طريقاً تريبياً يعرفه، هو أطول بكثير من الطريق المعبد، لكنه خال تقريباً ويمكنهم الوصول عبره إلى المطار في وقت أسرع، وحينما وصلوا كان الأمر أشبه بمعجزة، بقيت معجزة أخرى لا بد منها، الصعود إلى الطائرة!! قيل لحيدر سيدلر ابحث عن الرائد ماجد حميد، وستجد لديه خبراً بقضيتكم وهو سيتولى كل شيء.

سوق النّاسين

قبل الفجر بقليل استيقظ كل من كان في الغرفة المستطيلة على صوت اقتحام الباب وتشغيل الأضواء، دخل أربعة مسلحين، بحثوا عن بيشوي وصاحبه تحسّين، أيقظوهما ركلاً، وساقوهما إلى غرفة منعزلة، لا تبعد كثيراً عن الغرفة المستطيلة التي كانا فيها طوال اليومين الماضيين، وتركوهما حتى الصباح، ثم اقتادوهما مُقيدي الأيدي مُغمّضي العيون إلى سيارة عسكرية حملتهما إلى الجانب الأيمن من الموصل، عرجوا بهما على معسكر الغزلاني حيث أركبوا معهما رجلين آسيويين، وبعد ذلك نقلوهم جميعاً إلى منطقة المجموعة الثقافية التي تقع على الساحل الأيسر، حيث تقع جامعة الموصل، أدخلوهم إلى أحد مباني الجامعة الذي حولوه إلى سجن مؤقت، وحشروهم في إحدى الغرف الضيقة وأغلقوا الباب، طوال الطريق حاول الصديقان أن يكتشفا جلية أمرهما، وعندما اعتقدا ألا أحد يراقبهما، بدأ بيشوي بالسؤال همساً:

إلى أين تظنهم يذهبون بنا؟

لا أدري، لكنني أظنهم يأخذوننا إلى مقر قيادة أو شيء من هذا القبيل.

ولماذا نحن دون غيرنا من السجناء؟

لأنك أجنبي يريدون أن يقايضوا بك أو يستعملوك درعاً بشرياً، وكذلك
السادة الصينيون، هل سمعت رطانتهم؟

نعم، سمعت.

وأظنهم أبقوا على حياتي لأنني مترجمك وجاؤوا بي إلى هنا معك لهذا الغرض.

نعم، لقد استنتجت ذلك.

كان زعماء داعش قد قرروا أن يأتوا بكل الرهائن الأجانب ويوزعوهم في
الأماكن المهمة ليكونوا دروعاً بشرية، ولم يفتهم طبعاً أن يلتقطوا لهم صوراً وهم
مذلون مهانون في أكثر من مكان لينشروها على موقع وكالتهم «أعماق» وعلى
صفحاتهم التي تنشر نشاطاتهم متباهين بأسرهم لهؤلاء الأجانب وللتلويح لدولهم
بأوراق لعب تود داعش أن تلعبها في وقتها المناسب، أخذوهم ظهراً إلى مكان ما
في منطقة الدواسة، جعلوا منه سوقاً للنخاسة، يعرض فيه النخاسون بضاعتهم من
السبايا الأيزيديات والتركانيات الشيعيات وبعض المسيحيات وغيرهن، كان المتجر
عبارة عن عمارة قيصرية كانت قبل ذلك سوقاً للأجهزة الإلكترونية وألعاب الأطفال
التي أصبحت من المحرمات، مروا بهم من أمام السبايا وعند نهاية الرواق وقف
العنصر المكلف بهم وصفهم الى جوار النساء وراح ينادي: أجانب للبيع، أجانب
للبيع، فتجمّع عليه عناصر آخرون وسألوه ضاحكين: كم السعر؟ فرد عليهم:

هذا الأصلي (وأشار الى يشوي) بـ ٢٠٠ دولار، أما الصينيون فالواحد بخمسين
دولاراً، وضحكوا جميعاً، ثم ساقوهم وأدخلوهم إلى محل فارغ في وسط القيصرية
كانت بوابته المنسدلة من حديد مشبك، ربما ليتيحوا لهم أن ينظروا إلى ما يجري.

شاهد بيشوي النساء يقفن بانكسارٍ بيّنٍ أمام المحلات في ثيابهن المنزلية، وقد وضعوا على بطن كل واحدة منهن قطعة كارتون فيها سعرها بالأرقام الهندية، معروضات كأبيّ بضاعة مزجاة، بينما رجال قذرو الاشكال ذوو لحي طوال وعيون تقدح شرراً وشهوة يدخلون إلى السوق ويقلبونهم كما يفعل مشترٍ مع فاكهة غضة، يلمسون أردافهن وصدورهن، ويطلبون منهن أن يدرن ليتفرجوا على قوام كل واحدة منهن، كان أمراً خارج التصور لم يعتقد بيشوي أنه سيشاهد مثله في حياته أبداً، تراطن الصينيان فيما بينهما، وهمس هو لتحسين:

ماذا يجري هنا؟ وما المكتوب في هذه الأوراق؟

هذا سوق نخاسة يبيعون فيه السبايا.. وهذه أسعارهن كتبوها باللغة العربية وبالأرقام الهندية، وقبل قليل كان حارسنا يمزح مع زملائه فنادى علينا وعرضنا للبيع.

ماذا؟ أنت جاد؟ نحن في القرن الحادي والعشرين، أما زال ثمة بشر يبيعون بشراً آخرين عبيداً أو جوارى؟

هؤلاء يعيشون في قرون ما قبل الحضارة، ألاحظت ثياب النساء؟ نعم، تبدو ثياباً ومبازل منزلية.

صحيح، وهذا يعني أنهم اقتادوهن من منازلهن عنوة، لسنّ مقاتلات ولم يأسروهن في أرض المعركة، إنهن نساء مسالمات.

جيء بمصوّر فأدخلوه إلى زنزانة الرجال الأربعة فالتقط بضعة صور لبيشوي

وللرجلين الصينيين، ثم خرج وصوّر النساء من زوايا مختلفة، ثم أخذوهم في سيارة مكشوفة، ووقف خلفهم مسلح مقنّع، كأنها يستعرضون بهم أو يستعرضون أمام المدينة التي أسلمت نفسها لهم طوعاً أو كرهاً، سارت بهم السيارة حتى بلغت إحدى الساحات في المدينة القديمة، يبدو أن الموجودين هنا كانوا بانتظارهم، وقد صفوا مجموعة من الجنود عددهم قرابة الخمسة عشر في وضع البروك معصوبي العيون ومقيدي الأيدي إلى الخلف، ووقف خلفهم عناصر مسلحون من داعش، وبعد شيء من المراسيم الخاصة بهم من تلاوة آيات من القرآن الكريم، وإعلان الحكم الشرعي الذي صدر عن مفتيهم بإعدام الجنود بدعوى الكفر، تقدم العناصر المسحلون وسحبوا أقسام بنادقهم الأمريكية الصنع وأطلقوا النيران على رؤوس الجنود، فخرّ المساكين صرعى وتناثرت دماؤهم وأدمغتهم على الأرض، فسمع بيشوي وتحسين صيحات التكبير يضح بها الدواعش والناس المتجمعون في الساحة، وكاد بيشوي ينهار لولا أن أسنده تحسين وهمس في أذنه:

عليك أن تصمديا صاحبي

في الظهرية نفسها عادوا بهم إلى زنزانتهم في الجامعة، وهناك بكى بيشوي وتحسين كلاهما، قال بيشوي:

لقد نظرت في عيون السبايا المسكينات، رأيت فيها نداء استغاثة صامتاً وقانطاً، حتى وهنّ يدركن أننا أسرى مثلهن، شيء يشبه تعلق غريق بغريق آخر في بحر متلاطم الأمواج، إنهم يعذبوننا بطريقة «الإيهام بالغرق» التي ابتكرتها وكالة المخابرات الأمريكية وعذبت بها سجناء في سجونها السرية والعلنية الكثيرة.

لقد حزّ في قلبي هذا المنظر، لكنّ رؤية الرجال يسقطون مضرجين بدمائهم جعلني أتخيل نفسي واحداً منهم، ذلك أني عشت التجربة كما تعلم، ولم ينقذني منها إلا إرادة الله التي جاءت بك في اللحظات الأخيرة، أتعرف، أسأل نفسي ماذا ستفعل عائلات هؤلاء المغدورين؛ زوجاتهم وأولادهم، وكيف سينظر القاتل في عيون أولاده حين يعود إلى بيته، كيف سيمد يده إلى طعامه دون أن يتذوق الطعم النحاسي للدم المراق؟

عصراً اقتيد بيشوي وتحسين إلى غرفة في الطابق الثاني من القيصرية، كان ثمة زعيم يجلس إلى مكتب فخم، ووراءه الراية السوداء ويجلس بين يديه أربعة عناصر آخرين، أشار الزعيم إلى أحدهم قائلاً:

أبا يعرب، اتصل بالرافضية التركمانية وأسمعها صوت هذا الجاسوس الأبرص (والتفت إلى تحسين) وأنت، ترجم له كلامي، ستتصل الآن بصديقتك، أخبرها أنك حي فقط ولا تقل أي شيء آخر.

ترجم تحسين الكلام لبشوي، بينما اتصل أبو يعرب بنهلة، وحين فتحت الخط أعطى الهاتف لبشوي، الذي تناول الهاتف وقال بلهفة:

HEY NAHLA ..IT,S ME .. I AM PETER BISHOY (مرحباً نهلة، إن المتحدث هو أنا، بيتر

بشوي)

مرحباً بك سيد بيشوي، طمئناً هل آذوك؟ أنت بخير؟

WELL .. I AM FINE TILL NOW ... حسناً، أنا بخير حتى الآن... (ولم يكمل بيشوي

كلامه إذ خطف أبو يعرب الهاتف منه وكلم نهلة):

ها، سمعتينو لصاحبكي، خلص بقى، تغوحي تبليغي الغسالي.

حين خيّم الليل على زنانتهم تلك ظل بيثوي قلقاً يلوب، شعر به تحسّين،
وسأله:

ما بك يا صديقي؟

أشعر أني ورّطت المسكينة نهلة معي، ما ذنبها لتتحمل ضغوط التواصل مع
هؤلاء القتلة، والتفاوض معهم لأجلي.

ولا ذنب لك أنت أيضاً، كلٌ سيلقى ما كتب الله له.

أخشى أن تتأذى بسببي، هؤلاء القوم قساة القلوب، ولا أتمنى أن يظفروا بها.

صدقت والله، لا نظير لهم في القسوة، إلا أسلافهم من مجرمي القاعدة.

حقاً، كنت أتحدث مع أصدقاء لي من تلغفر وسألتهم عن الفرق بين داعش
والقاعدة، وأخبروني بأشياء تثير الرعب والاشمئزاز في الوقت عينه.

داعش والقاعدة متشابهان غير متطابقين مثل نعلين، الفارق الوحيد يكمن في
جهة القدم، كلاهما يحملان العقيدة الإجرامية ذاتها، ولولا أني أخشى أن أثقل على
قلبك، لرويت لك مزيداً من قصص الرعب التي عشناها مع هؤلاء وأولئك.

ثق يا صديقي بيات إن الإنسان في داخلي لا يريد سماع كل تلك القصص، لأنها
تؤلم القلب والضمير، تجعل المرء يستحي من كونه إنساناً لأن بعض بني جلدته من
البشر فاقوا الذئاب والضباع والضواري في وحشيتها، لكنّ الصحفي الفضولي الذي
تقمّصني منذ أربعة عقود لا يترك لي متسعاً لراحة البال أو الجسد، ولولاه لما كنت
هنا، وبالمناسبة لست نادماً على رففته الطويلة.

حسناً، واحدة من أشنع الجرائم ضد الإنسانية حدثت عام ٢٠٠٥ أيام كانت
القاعدة تنتشر في هذه المناطق من الموصل والمحافظات الغربية، ذات يوم أصاب

قناصهم طفلاً في محلة القلعة التي يسكنها السادة الموسويون، لحسن الحظ لم يمت الطفل، وجاءت الإسعاف وحملته إلى المستشفى، لكنهم - بما أنهم من صنع أمريكا وتدريبها، لا يتركون مهمة غير مكتملة، حتى لو كانت قتل طفل - ذهبوا واختطفوا الطفل المصاب من المستشفى ثم ذبحوه وملاًوا بطنه بالمتفجرات، وكان والده يأمل أن ينجو ابنه من الإصابة ويتعافى منها، لكنه انهار حين علم بما فعله إرهابيو القاعدة، وحثّره الناس من الذهاب لجلب جثة ابنه من المكان الذي تركوها فيه لأنها مفخخة، لكنه أصر على ذلك، وحين ذهب وحمل ابنه سقط رأس الطفل الشهيد أولاً ثم فُجرت جثته عن بعد، فأصيب الأب إصابات بليغة، نقل على إثرها إلى المستشفى، وفارق الحياة في اليوم التالي.

هل كانوا يستهدفون الجميع على قدم المساواة؟

كلا، بل يستهدفون الشيعة في المقام الأول، خذ مثلاً ناحية العياضية وهي إحدى نواحي تلعفر الثلاث ربيعة وزمار والعياضية، فمركز الناحية تسكنه أغلبية سنية، لكن بعض قراها الشيعية كقرية «قبك» كابدت كثيراً من القتل والترويع والإرهاب، كانت السيارات المفخخة تتفجر على سكانها بلا شفقة، وجريمتهم الوحيدة هي أنهم شيعة، سجل في ضميرك ثم في كتاباتك إذا شاء الله لك النجاة: إنها حرب إبادة «جينوسايد».

سكت تحسين بيات وسكت بيشوي أيضاً ولم يعلق، شعر أنه لو سمع مزيداً من الحوادث فإن قلبه قد ينفجر أو يتوقف، وحين بدأ النعاس يداهم أجفانه رويداً، كانت أطياف النساء المعروضات للبيع والرجال الذين قتلوا بلا رحمة وكل قصص الرعب تطوف في مخيلته، وتمنعه الغمض، لكنّ التعبَ ترياقَ المكروبين، أسدل جفنيه على جمر رغماً عنه.

صلاة وصلادة

بين اليقظة والنوم، وكمن يحلم في ظلام ذلك السجن الذي كانت تنفذ أضواء بعيدة إلى داخله من فتحات بابه المنسدل المشبك، رأى بيشوي شبهاً يتحرك قياماً وقعوداً، ويتمتم بصوت خفيض كلاماً غير واضح وغير مفهوم، نهض وفرك عينيه محاولاً أن يتثبت مما يرى، فوجد تحسناً يصلي، وفي آخر صلواته رفع يديه وهو جالس على الأرض ودعا الله بإخلاص ويقين واضحين، وحين انتهى إتكأ على الجدار، فرحف بيشوي وجلس قربته متكئاً على الجدار وعيونه تملق في الظلام المشوب بقليل من الضوء، قال لتحسين كمن يستدعي ذكرياته من مكان قصي في الوجدان:

عشت في بلادي ولم أحضر قُداساً لسنواتٍ طوالٍ، شيءٌ ما كان يمنعني، أو

يقول لي:

لا حاجة بك أيها المواطن العصري لهذه الغيبيات، وكنت أطمئن هو اجسي بأن أردد مع نفسي عبارات سخيفة وتبريرات مضحكة، أقول أحياناً إن الكسل يقف وراء جفوتي تلك، وأحياناً أخرى أنسب الدوافع إلى الحياة، وأقول إنها أبعدتني عن الله والمسيح والكنيسة رغماً عني، لكنني في قداس يوم الأحد الذي سبق مجيئي إلى هنا

ذهبت وفي أعماقي يقين مختلف، ليس لأنني سأتوجه بعده بأيام إلى العراق، وليس لأن العراق أصبح البلد الأكثر التهاباً بالحرب والدمار والعنف والخطف والقتل، بل لأنني كنتُ أرغب بشدة أن أحدثَ تحولاً داخلياً في روعي التي تكلمت لفرط إغراقها في شؤونها الدنيوية وملاذ الحياة السريعة الزائلة.

لقد اكتشفت يا صديقي أننا هناك في غربنا المتختم بالمال والأطعام والرذيلة، نعيش غرباء حتى ونحن في وسط عائلتنا، ثمة حواجز كثيرة صنعها المجتمع والقوانين والثقافة تجعل المرء ينكفى على نفسه في عزلة متوحشة رغم ملايين البشر الذين يحيطون به، لقد أفرطنا في الثقة بعالمنا الرأسمالي وبعلاقاتنا المشوهة، وابتعدنا عن منابع النور الحقيقية التي لا تنطفئ ولا يتغير أثرها لمن آمنوا بها.

داهمتني رغبة قوية تلك المرة في أن أقرب إلى الله، وأن أشعر به في داخلي لا كما صورّه العهد القديم إلهاً قاسياً متجبراً، بل أن ألمسه بقلبي فاستشعر رحمته وحنانه، ولهذا قصدت الكنيسة صباح ذلك الأحد، ولقد كان لصوت الأجراس أثر مختلف، كانت كأنها تعزف موسيقى الغفران وأنعام التوبة، كأنها تناديني أنا وحدي أن تعال يا يشوي لقد أطلت اغترابك، تعال فبانظارك طمأنينة ومحبة، يمكن لروحك أن تأمن هنا وأن تشعر بالدعة وأن تتنسم الفضيلة، وحين خرجت من البيت قاصداً الكنيسة شعرتُ أنني كنتُ أخطو على إيقاعات الاعتراف بالخطايا البشرية لا خطاياي أنا وحدي، ألسنا نحن بني الخطيئة، أليست تعاليم يسوع المسيح تذكرنا دائماً بأننا مجبولون على العصيان والتمرد: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر، ولا أظنه كان يقصد المرأة الزانية وحدها، بل كل مَنْ نتمر عليه بفضيلة زائفة ونحن تنخرنا الخطايا والمعاصي، بدأ القداس بالصلوات:

أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا، أعطينا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في التجربة، لكن نجنا من الشرير.

ولطالما كنت أعشق هذا الجزء من الابتهالات الذي يقول فيه الكاهن:

المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة، الحق أنه يعطيني طاقة إيجابية، وأشعر أنني مسوق إلى الاعتراف الطوعي أمام الله بكل أخطائي وهفواتي.

أتعلم يا تحسين، لقد حدثته هكذا ببساطة: إلهي، إنني أغادر بيتي ووطني هذه المرة إلى بلد خاصمه السلام منذ عقود، ولا أدري هل سأعود أم لا، لا أطلب منك أن تضمن لي حياتي، لكن أطلب منك وألتمسك أن تضمن لي راحة ضميري، أن أكون بين يديك كما تحب أن أكون لا كما أستحق أن أقف.

تنبه بيشوي على صوت نشيج بدأ يعلو شيئاً فشيئاً، فالتفت إلى صاحبه تحسين فوجده يبكي والدموع تُغرق وجهه ولحيته، ولم يتمالك نفسه فبكى هو أيضاً.

ناجون من المذبحة

تزاحم الناس على سلم طائرة النقل العسكرية نوع C130 التابعة للقوة الجوية العراقية، حاول طاقم الطائرة إركاب أكبر عدد من الناس فيها، لا سيما النساء والأطفال والمسنين وذوي الاحتياجات الخاصة والمرضى، كثير من الرجال الذين وصلوا مع عائلاتهم لم يكن في نيتهم ركوب الطائرة لأنهم عازمون على البقاء، لكن لم يكن بوسع عائلاتهم الوصول إلى المطار من دونهم، وجّه الطيار طاقمه بمنع صعود آية حقائب أو أحمال ثقيلة إلى الطائرة، وقال مخاطباً الناس:

يمنع اصطحاب آية أمتعة أو حقائب أو حمولات ثقيلة، يسمح للنساء بحمل حقائبهن اليدوية فقط، ولذوي الاحتياجات الخاصة بكراسيهم ذوات العجلات، وأرجو أن تتفهموا أن وزن الحقائب والأمتعة سنعوضه ببشر نقتلهم.

رمى كثير من الناس حقائبهم وأغراضهم، بعضهم تركوها في سيارات الرجال المرافقين لهم، أما نهلة فلم تصطحب معها إلا حقيبة يدها، وكانت فيها محفظة نقودها وهوية العمل وبضعة أشياء أخرى، فضلاً عن دفتر مذكرات يشوي الذي بقي في حقيبتها، وجدت جوف الطائرة لا يشبه الطائرات المدنية، ثمّة عدد محدود

من المصاطب تتكئ بظهورها على الجدران الجانبية، جلس عليها معاقون ومسنون ونساء حوامل، وما فاض من المكان في الوسط تُرك للباقيين، نصحهم أفراد الطاقم بالجلوس والتمسك بالشباك الموجودة في الجوانب، أما الذين افترشوا الأرض فكان عليهم أن يحافظوا على ثباتهم أثناء الإقلاع فقط، وحالما تستقر الطائرة في الجو فلن يكونوا بحاجة لشيء.

كانت الدقائق تمرّ ثقيلة ومكتظة بالقلق، فأصوات الحرب ليست بعيدة عن المطار، بل لقد عانى المطار من قصف متقطع خرب كثيراً من مرافقه، وتضرّر من جرائه المدرج أيضاً، وكان يبدو أن الدواعش يعتزمون مهاجمته قريباً جداً، تحجرت وجوه الناس هناك وصارت عيونهم من جمر، فالعائلات صارت تنشطر بلا رجعة، الآباء يودعون نساءهم وأطفالهم وذويهم وداعاً أخيراً ربا، لا يعلم من بقي كيف سيكون مصير أسرته وإن نجوا من المذبحة، كيف ستمر عليهم الأيام، وهل سيظنون مُقتلعيّن من ديارهم أم أن لهم عودة أخرى، وهؤلاء بالمقابل يعلمون أن قبلات الأب على خدودهم وأحضانهم لن تتكرر أبداً بعد ذلك، لأنه باقٍ هنا في معسكرٍ كُتبت الشهادة على كل من فيه.

كانوا يصعدون إلى الطائرة من بوابتها الخلفية الكبيرة ويلتفتون إلى الخلف بحسرة، ترتجف القلوب وتُبج الحناجر ويتهدج الصوت بكاءً، بينما الأيدي تلوح من هنا من الأرض، ومن هناك من جوف الطائرة الذي بدا مظلماً حين امتلأ بالناس، كانت نظرات الآباء الباقيين هنا تودع الحياة وهي تنابع تلك البوابة الهيدروليكية للطائرة وهي ترتفع رويداً وتُغلق مثل جفن سيطبق إلى الأبد.

كان معظم من تنطبق عليهم الشروط قد ركبوا الطائرة، وأعلن الطيار لمساعديه أن عملية التحميل قد اكتملت وأن الأبواب أغلقت، عندئذٍ دارت المحركات ودوى الهدير المخيف، ثم تحرك طائر الحديد العملاق متجهاً صوب مدرج الإقلاع، ولم يكن قد بقي في المطار برج مراقبة ولا كادر توجيه جوي، وحالما استوت الطائرة على أول المدرج حتى انطلقت مثل امرأة حامل بتوائم تريد أن تقفز جدولاً هرباً من ضباغ لا تشبع من الدم، وكان الناس في رحمها يبسلمون ويقرأون آيات من القرآن الكريم. كانت نهلة تجلس القرفصاء وسط عجوزين مستتين وتجلس خلفها ظهرًا لظهر امرأة أربعينية في حضنها طفل في الثالثة من العمر لم يكفَّ عن البكاء.

الطريق الترابي الوعر الذي سلكه حيدر سيدلر ليضمن وصولها إلى المطار ثم فوضى الصعود إلى الطائرة والإقلاع المخيف على مدرج نصف محطم، والقلق على والدها الذي بقي في تلعفر وشقيقها الصغيرين محمد ومصطفى اللذين ذهبا مع خالتها إلى سنجار وشقيقتها أمينة التي وصلت في شاحنة موتى إلى دهوك، ناهيك عن اختلال الضغط المفاجئ الذي يسببه الإقلاع لبعض الناس، كل هذه الأمور جعلت رأسها اشبه بلغم على وشك الانفجار، فتحت حقيبتها التي لم تكن تخلو من حبوب الباراسيتامول فتنبعت لوجود دفتر ملاحظات يشوي بين أغراضها، وجدت شريط الدواء وأخذت منه حبة ابتلعتها من دون ماء، وانتظرت أن يهدأ صداعها، لكنه تفاقم وتحول إلى طنين مؤلم في أذنها اليمنى، إلا أنه لم يلبث أن هدأ مع استقرار الطائرة في الجو واعتدال الضغط، ولكي تشغل نفسها وتنسى آلامها وقلقها قليلاً فكرت في أن تقرأ ماذا كتب يشوي، لكنها ترددت قليلاً، واندلع في داخلها صراع بين صوت ضميرها الذي يقول إن الدفتر بقي عندها سهواً، لم يسلمها

بيشوي إياه ولم يأتمنها عليه، ومع ذلك فهو في حكم الأمانة ولا ينبغي لها أن تنتهك خصوصية الرجل، فلعل فيه معلومات لا يريد لأحد أن يطلع عليها! وبين صوت الواقع الذي يقول إن الرجل مختطفٌ الآن عند الدواعش، وهؤلاء القوم يتصلون كلَّ حين ولديهم مطالب يريدون أن تصل إلى مسامع الحكومة، والحكومة مشغولة بما هو أهم وأفدح من قضية بيشوي، ولا منقذ له إلا رحمة الله، فلعل في الدفتر ما يساعد في إنقاذه من أيدي هؤلاء الظلمة، فكّرت أن تستخير، لكن ليس معها الآن مصحف لتستخير به، فلجأت إلى استخارة طريفة، قررت أن تلتفت عشوائياً إلى إحدى العجوزين وتساءلها ما اسمها، وستكون الخيرة بينة في الاسم، التفتت يميناً وسألت العجوز:

ما اسمك يا حاجة؟

فردت العجوز بقنوط:

المصائب أنستنا أسماءنا يا ابنتي، لكن كان الناس ينادونني صبيحة.

صدقوا فأنتِ صبيحة الوجه، أسأل الله لك الصحة وطولة العمر.

عادت نهلة إلى مونولج صراعها الداخلي قائلة لنفسها: حسناً ها هي الاستخارة

فصلت القول، فلنقرأ وليسأحنا الله، فلسنا بمن يخون الأمانة، إنها الضرورة حكمت.

دفتر توثيق الآلام

قلبت غلاف الدفتر فوجدت على أوله عبارة «دفتر ملاحظاتي الخاص بالعراق»
وتحتته قرأت تاريخاً يشير إلى الثالث عشر من مايو عام ٢٠١٤، وفي الصفحة الأولى
كتب:

١٣ مايو ٢٠١٤ م

دفتر الملاحظات هذا أنشأته اليوم -جرياً على عادة اعتدتها كلما خضت تجربة
جديدة ومهمة وخطيرة- ليرافقني في رحلة مهمة ومحفوفة بالمخاطر عليّ أن أخوضها،
فقد كلفني رئيس التحرير هذا اليوم بملف العراق مرة أخرى، قال لي باسمًا:

تهانينا بيشوي، ستذهب إلى العراق ثانية.

حقاً؟ (قلتُ بلؤم) يا لها من مهمة رائعة، شكراً لك.

أنا أعلم أنك لم تعد تميل إلى مثل هذه المهام، ولكننا لن نجد شخصاً أفضل منك
لها، أنت تعرف العراق جيداً، وقد كنتَ هناك بعد عام واحد على احتلاله وإسقاط
نظام صدام حسين، وشهدت المعارك الطاحنة في النجف والفلوجة وزودتنا بتغطيات

رائعة، فلن يصعب عليك أن تكتب لنا الآن، فالأوضاع باتت أفضل بكثير مما كانت عليه عام ٢٠٠٤م.

حسناً، عمّاذا سأكتب هذه المرة؟

ستكتب لنا عن كل شيء هناك بعد عقد كامل من السنين مر على تلك الحرب، وعلى التغيير في النظام السياسي، عن المجتمع في انتقاله من الديكتاتورية إلى الديمقراطية، عن الأقليات الدينية والعرقية وما الذي تغيّر في حياتها وحقوقها ومدى قدرتها على أداء شعائرها بحرية، عن كل شيء تقريباً.

ولقد أسعدني هذا التكليف وأحزنني في الوقت نفسه، لقد أسعدتني ثقة مؤسستي ورئيسها بي في الأمور الجسيمة، فملف العراق ملف شائك ومعقد، وأعتقد أن نجاحي في تغطية أحداث الفلوجة والنجف في العراق عام ٢٠٠٤ وقبلها حرب الكونغو عام ١٩٩٧ والحرب الأهلية في بوروندي عام ٢٠٠٢، والتقارير الميدانية التي كنت أرسلها على نحوٍ يومي تقريباً، التي زادت كثيراً من توزيع الصحيفة ووسعت انتشارها والإقبال عليها حتى خارج إيطاليا، كل ذلك حملهم على أن يكلفوني تقديراً

بتغطية ملف العراق، أما ما أزعجني فهو أنني كنتُ قد اكتفيت من مشاهدة الدماء تسيل والأرواح تُزهق والتعاسة تنتشر بين البشر مثل بقعة زيت عملاقة في بحر منكود الحظ، إن في العالم أحداثاً شتى، ليست حروباً بالضرورة، بل إن كثيراً منها أحداث سعيدة كافتتاح دورات الألعاب الأولمبية أو نهائيات كأس العالم أو مؤتمرات المناخ أو المنتديات الاقتصادية، أما كان أجدي لي وأنا في نهاية مسيرتي

المهنية لو أرسلوني لتغطية مثل هذه المناسبات؟ ألهذا الأمر علاقة بسوء الحظ؟ لا أدري حقاً، لكن يبدو لي أن النحس ليس خرافة، أليس صدور هذا التكليف في مثل هذا اليوم الذي يحمل الرقم ١٣ فيه علامة شؤم ما؟ لا بأس، لا بأس، عليّ أن أتقبل الأمر، ولعلي بهذه المهمة الشاقة سأختم مسيرتي وأتقاعد، لكن المضيء في الأمر أنني قد أجمع ملاحظات رحلتي هذه إلى العراق مع ملاحظاتي من رحلة عام ٢٠٠٤ وأؤلف بهما كتاباً حين أعود إلى هنا.

حسناً ما دمتُ مخوّلاً باختيار الموضوعات التي سأكتب فيها وعنّها، سأركّز على الأقليات الدينية والعرقية في العراق ومعاناتها في ظل ظروف سياسية وأمنية غير مستقرة، والتحديات الثقافية والاجتماعية والسياسية والأمنية التي يواجهونها، صحيح أن ما يجري الآن هناك ليس حرباً صريحة، لكنّ العراق يخوض صراعاً مريباً ضد القاعدة والمنظمات الإرهابية منذ ٢٠٠٣ وحتى اليوم.

٣١ مايو ٢٠١٤م

أبلغتُ نهار اليوم أن الترتيبات قد أُنجزت لرحلتي إلى العراق، وأن عليّ أن أهيب نفسي للسفر في غضون ٤٨ ساعة، طوال الأسبوعين الماضيين كنت أجري أبحاثي عن المجتمع العراقي وطبيعة تكوينه الديموغرافي، وما طرأ عليه من تغيرات طوال السنوات العشر الماضية، قرأت عن تأريخه بعض الأشياء، وعن أماكن انتشار الأقليات في ضوء جغرافيا البلد، بعض الأقليات التي سأكتب عنها هي أقليات مركبة ونسبية، فالشيعة العراقيون هم أكثرية الشعب العراقي بنسبة تقارب الـ ٧٠٪، لكن الشيعة التركمان أقلية من حيث العرق في عموم العراق، وهم من حيث المذهب أقلية أيضاً نسبة إلى أماكن سكنهم في المناطق الشمالية، حيث تحيط بهم قوميات

ومذاهب أخرى كالعرب السنة والأكراد السنة والأيزيديين والمسيحيين وغيرهم.
حملت حاسوبي النقال وكل الأوراق التي قد أحتاج إليها، ولن أستغني -
طبعاً- عن هذا الدفتر الذي أستطيع اصطحابه معي إلى كل الأماكن نظراً إلى خفة
وزنه قياساً إلى اللابتوب، سأستخدم الحاسوب في كتابة التقارير التي أرسل بها
الصحيفة، أما ملاحظاتي الخاصة ومذكراتي فهذا هو مكانها الصحيح، حيث أستمتع
بالكتابة بيدي أكثر من الطباعة برؤوس أصابعي، ربما لأنني من الجيل القديم من
الصحفيين، أشعر أن الكتابة باليد لها مذاق خاص وجاذبية لا تقاوم، ملامسة الورق
الأبيض تمنحني دفناً كمن يلمس جبين حبيبته.

١ حزيران ٢٠١٤ م

وصلتُ صباح اليوم بطائرة عسكرية في رحلة من روما إلى بغداد، مروراً بقاعدة انجرلك في تركيا حيث توقفنا بضع ساعات جرى أثناءها تحميل شحنات من مواد عسكرية لم أفتقه ما هي حقاً، لن أبرح مطار بغداد، بل سأبقى في قاعدة «فيكتوري» الأمريكية داخل المطار، بانتظار أن تتوفر الظروف المناسبة لنقلي إلى الموصل، لإعداد بعض التقارير الصحفية عن أحوال الناس داخل تلك المدينة الكبيرة المختلطة الأعراق والأديان والمذاهب، قرأت تقارير صحفية ودراسات موثوقة تفيد بأن غالبية سكان الموصل العرب ما زالوا يشعرون بالغضب بسبب زوال نظام الرئيس السابق صدام حسين، ورغم إعدامه بعد محاكمات طويلة وعلنية عام ٢٠٠٦ بسبب جرائمه الوحشية ضد الشيعة والأكراد، إلا أنهم ما زالوا يدينون بالولاء له ولرموز نظامه، بل إن بعضهم يذهب بعيداً فيزعم أن صداماً ما زال حياً وأن الذي أُعدم هو شبيه له وليس هو.

التقيت صحفياً فرنسياً من وكالة الصحافة الفرنسية ينتظر رحلة العودة إلى بلاده في قاعدة فيكتوريا، سألته:

منذ متى أنت هنا؟ وكيف هي الأوضاع؟

أمضيت ثلاثة أسابيع بين بغداد ومدن الجنوب، وكتبت تقارير اقتصادية تتعلق بقطاع النفط ومناطق الاستثمارات النفطية الواعدة، الوضع السياسي متأزم، لكن الحياة ما زالت ممكنة والنجاة كذلك، أهذه مهمتك الأولى في العراق؟

كلا، لقد كنت هنا أيام معركتي الفلوجة والنجف اللتين دامتا بضعة أشهر، ثمّة تقرير خطير جداً بثته وكالة انباء إيطالية في ٩ نوفمبر ٢٠٠٥ وجاء فيه ان المارينز استعملوا في معارك تلك المدن قنابل MK-77 الشبيهة بالنابالم فضلاً عن الفسفور الأبيض، لقد استقى كثيراً من معلوماته من تقاريري في حينها.

أها، عمل رائع، وعمّ ستكتب هذه المرة؟

تريد صحفيتي أن تستقري التغييرات التي قد تطرأ في مجتمع أمضى عقوداً تحت نير نظام شمولي، ثم ألقى به فجأة، وبفعل حرب طاحنة، في متاهة بليدة ومعقدة تسمى الديمقراطية! ويعتقد رؤسائي أن جمهور قرائنا يجب أن يعرفوا أيضاً كيف تعاني الجماعات الدينية المقهورة أياً كانت، وما أوجه التحول الذي أتاحتها لها الديمقراطية في ممارسة حرياتها الدينية؟ وأريد أنا أن أختبر إلى أي مدى يمكن أن يحدث التعايش بين أكثرية محكومة مقموعة مع أقلية حاكمة قابعة بعد تغير المواقع لناحية الحكم؟ الأمر لا يبدو هيناً، وأعتقد أن ما نكتبه اليوم سيصبح في مستقبل قريب مرشداً لتجارب شعوب وأمم أخرى، سيكون حظها أفضل من حظ العراقيين، الذين جُربَتْ فيهم أجيال الحروب الجديدة، وأجيال الأسلحة الجديدة، وأجيال المخططات الجديدة التي لا تخطر على بال الشيطان نفسه.

٢ حزيران ٢٠١٤ م

أخبروني مساءً أن عليّ التوجه بطائرة مروحية تابعة لقوات التحالف إلى الموصل، الأنواء الجوية تقول إن ثمة ظروفاً جوية غير ملائمة للطيران في اليومين المقبلين، إن لم أسافر اليوم فإن بقائي في قاعدة فيكتوري سيستمر ثلاثة أيام إضافية وربما أكثر، وأنا لا أملك كل هذا الوقت، إذ لدي مهام عليّ إنجازها في توقيتاتها المحددة، وإلا لن تكون لرحلتي هذه أية قيمة، والوضع السياسي قلق جداً في المناطق الشمالية لا سيما في الموصل حيث أتوجه، لقد أقامت قيادات سياسية سنوية اعتصامات ومنصات احتجاج بسبب اعتقال سياسيين سنة متهمين بالإرهاب بينهم نائب رئيس الوزراء، لكن على كل حال لم تنفلت الأمور، والجيش والقوات الأمنية تنتشر هناك، لا خوف من شيء إذن، سننجز المهمة ونعود إلى ديارنا عزيزي PB.

من نافذة طائرة الشينوك المروحية، بدت لي بغداد بعد الإقلاع منها بقليل مدينة موحشة مترامية الأطراف، فيها شوارع وأحياء مضاعة هنا وهناك، وفي ما عدا ذلك فالظلام يخيم على كل شيء، والحال ليس بأفضل منه في المناطق التي حلقنا فوقها حتى وصلنا إلى قاعدة القيادة في الموصل، الوضع هنا شديد العتمة بحيث لا يفصح عن شيء، والعتمة يأس وانقطاع عن الحقيقة، ولذلك خلق الله النوم لكي لا تضطر

إلى التعايش مع العدم، الحقيقة هي الضوء حتماً، وقد صدمني كيف أن هذه البلاد غارقة في العماء والظلام دون شكوى!
بثُّ ليلتي تلك في قاعدة القيارة حتى الصباح، نصحني العسكريون الأمريكيون والعراقيون ألاَّ أتحرك إلاَّ بمصاحبة من قوة حماية الشخصيات، وأن يكون تحركي في ساعات النهار، فالليل خطير، هكذا قالوا.

٣ حزيران ٢٠١٤ م

بعد رحلة برية مضية بسيارة هامفي عسكرية وصلت حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى قرية الخزنة وهي من قرى سهل نينوى، وتقع على بعد ١٩ كيلومتراً شرق مركز مدينة الموصل، ويقطنها الشبك الشيعة، كنتُ مصحوباً بقوة من الجيش العراقي مع توصية مشددة من حكومتي، التي تحولت بدورها إلى توصية مشددة من قوات الائتلاف الدولي بضرورة الحفاظ على حياتي، قالوا لهم: لا نريد تكرار مأساة إنزو بالدوني أو جوليانا سيغرينا، كان بالدوني قد جاء إلى العراق في مهمة صحفية صيف عام ٢٠٠٤ في وقت مقارب لوقت وجودي آنذاك لتغطية أحداث النجف والفلوجة، فاختطفته إحدى الجماعات السنية المتطرفة واحتجزته بضعة أيام ثم قتلته وصورت عملية إعدامه، مع أنه كان مناهضاً للحرب على العراق، أما سغرينا فقد نجحت الحكومة الإيطالية في إطلاق سراحها من جماعة سنية أخرى متطرفة، لكن القوات الأمريكية- في حادثة تحيطها الريبة من كل صوب- أطلقت النار على السيارة التي تُقلُّها قرب مطار بغداد وقتلت الضابط الإيطالي برتبة لواء نيكولا كاليباري الذي خاض مفاوضات إنقاذ حياتها بنجاح، وما تزال الحكومة الإيطالية غير مقتنعة بالرواية الأمريكية للحدث، لا سيما أن سغرينا كانت شاهدَ

عيان على ما جرى وقد نقضت تلك الرواية جملة وتفصيلاً.

وأثناء مسيرنا من القيارة إلى سهل نينوى بدأ الجو يكفهر، ثم أصبح لون السماء ترابياً مائلاً إلى الحمرة، قال لي محيي الدين مردان المترجم الذي برفقتي:

كالمعتاد، إنها عاصفة ترابية.

أجبتُه وأنا أتأمل الجو خلال نافذة السيارة الضيقة المدججة بالحديد والصامولات:

نعم يا عزيزي مردان، هذه البلاد واقعة في ملتقى الزوابع وعواصف الصحراء واليورانيوم المنضب وكل أنواع الكوارث، كان الله في عونكم، ولا تنس أن لي خبرة سابقة بزوابع بلادكم.

حقاً؟ متى كان ذلك؟

كنت هنا في مهمة صحفية مثل هذه عام ٢٠٠٤، وكان لقائي الأول بزوبعة مماثلة في ذكرى أربعينية الحسين وكنت يومذاك أعسكر في الطريق الرابط بين النجف و كربلاء، ومن هناك أبعث تقاريري الصحفية، إذ لم يكن دخول النجف آمناً بسبب الاشتباكات العنيفة، اكفهرّ الجو هكذا حتى صار بلون الدم.

لقد قلبت تلك العاصفة جوّ المدينة إلى اللون البرتقالي المحمر، ولعلها هي الظرف الجوي الذي حذرت منه الأنواء الجوية، لا بأس بذلك ما دمتُ على الأرض ولستُ في طائرة تتقاذفها هذه الزوابع الترابية المحمر، في الغالب - وبحكم خبرتي السابقة والراهنه في دراسة المجتمعات الشيعية وتغطيتي بعض الأحداث والمناسبات التي تخصهم - يميل الناس هنا إلى الاعتقاد بأن تلك الحمرة ليست سوى ظلال دم

الحسين وأهل بيته وأصحابه الذين استشهدوا في كربلاء قبل ما يقرب من أربعة عشر قرناً، وقد توشَّح بها الأفق في مواساة كونية لذلك الحادث الجلل.

ويبدو الحسين بين مسلمي العراق الشيعة البؤرة المركزية للتدين والعقيدة، إنهم يحبونه ويحيون ذكرى استشهاده كل عام، في شهر المحرم وهو الشهر الأول من التقويم الهجري الإسلامي الذي يعتمد دورة القمر لا الشمس كما في التقويم الميلادي، إذ يتوجه ملايين المسلمين الشيعة سيراً على الأقدام إلى ضريح الحسين في كربلاء، في رحلتي السابقة إلتقيت مواطنين شيعة من سكان الموصل ومناطق شيعية أخرى متناثرة في الشمال على الطريق إلى كربلاء، سألتهم يوماً: ما الذي أتى بكم إلى هنا؟ وكيف وصلتكم؟ فعرفت منهم أن كثيراً من الناس يجازفون بحياتهم ويذهبون في طريق «مداري» يلتف شمالاً إلى دهوك ومنها إلى أربيل ثم كركوك وقد يدورون حول مناطق صلاح الدين المكتظة بمسليحي القاعدة آنذاك، فيذهبون في طريق تتضاعف فيه المسافة كثيراً ليصلوا أخيراً إلى بغداد، ثم يتوجهون إلى كربلاء في طريق لا يقلُّ خطورة عمّاً مرُّوا به، لا سيما في ناحية اللطيفية التي تعد معقلاً للقاعدة، لكنّ بعضهم قد يكتفون بالذهاب سيراً على الأقدام إلى مقام صغير للسيدة زينب شقيقة الحسين، أقيم على موقع كانت قد مرت به تلك السيدة الباسلة، حدثني رجل دين شيعي يرتدي غطاء رأسٍ أسودٍ ويسمونه هنا السيد، وهذا وصف يدل على أنه من نسل النبي محمد قائلًا: «لقد قادت عمتي السيدة زينب موكب النساء المسيبات بعد الواقعة الأليمة في هذه المناطق الوعرة، كان الجنود ينفذون رغبة مجنونة وبالغة التعسف والجور لحاكمهم الأموي يزيد بن معاوية آنذاك في إذلال نساء البيت النبوي وتعذيبهن، عبّر سوقهن سبايا مكبلات بالحديد في هذا المسار الغريب من

كربلاء نزولاً إلى مدن الجنوب ثم التفافاً فصعوداً إلى الشمال صوب الموصل، ومروراً بجبل سنجار الذي يحتفظ ببعض المقامات لذلك المرور التاريخي، ومنه إلى نصيبين التركية حالياً، ثم إلى حران فالرقة فحلب فحمص فبعلبك اللبنانية وأخيراً إلى دمشق في نصف دورة هائلة المسافة رغم وجود الطريق المباشر والسهل بين كربلاء ودمشق!»!

يومها قلت له: إن الأمر يبدو لي كرحلة بالطائرة بين روما وباريس لكنها بدل أن تأخذ مسارها الطبيعي الذي يستغرق ساعتين فقط، تتخذ مساراً دائرياً يمر بدلهي في الهند وسيدني في استراليا وريو في البرازيل فتغدو بذلك جحيماً يستغرق بضعة أيام من العناء المتواصل.

لقد كان لهذه السيدة دور بطولي وشجاعة نادرة وفصاحة مذهلة رغم فداحة المواقع التي مرت بها، وهي تحظى بقداسة وعاطفة من لدن المسلمين عامة والشيعية خاصة لا تقلان عما يحظى به الحسين.

وقد يذهب شيعة يقطنون في مناطق أخرى من الموصل إلى مقام زين العابدين «الإمام الرابع لدى الشيعة» الذي كان شاباً مريضاً إبان معركة كربلاء التي جرت سنة ٦١ هجرية، ولذلك لم يشمل القتل الذي طال كل من كان مع الحسين من الرجال، بما في ذلك طفله الرضيع عبد الله ذو الأشهر الستة تقريباً.

إحدى مهامى الحالية هي تغطية وقائع الزيارات ذات الطابع الديني سيراً على الأقدام التي يواضب هؤلاء القوم عليها في كل عام، على الرغم من المخاطر الشديدة التي تحيط بهم، (لا توجد حتى الآن إحصائية دقيقة لعدد التفجيرات الإرهابية التي

طالتهم وهم يؤدون زيارتهم في مسيرات سلمية خالية من أيّ مظهر عدواني، ولا عدد الضحايا الهائل في كل المسارات التي يسلكونها في طريقهم إلى كربلاء) حسب بحوثي التي أجريتها قبل سفري، ثمة مناسبة قريبة وعظيمة ستحل يوم ١٣ من يونيو، يسمونها ليلة النصف من شعبان وهي ذكرى ولادة المهدي الإمام الثاني عشر الذي يحظى بخصوصية بالغة لديهم، عليّ أن أجري بعض اللقاءات مع الناس هنا ليحدثوني عمّا يدفعهم إلى المخاطرة بحياتهم في تلك الرحلات المحفوفة بالموت وقطاعي الطرق والرؤوس، أود أن أسألهم:

ما الذي يحملهم على الذهاب إلى المقامات الدينية في كل مناسبة، سواءً أكانت ولادة إمام أم وفاته؟ ما الذي يجعل تلك الرحلات تستحق العناء؟ ماذا ينتظرون من الحسين أو من المهدي أو من الله جزاء تضحياتهم؟ فعناصر القاعدة أو داعش يتربصون بهم ليقتلوهم لا سيما أثناء أدائهم تلك الطقوس التي تبدو لي غاية في السلمية، إنها سيرٌ هادئٌ يكاد يكون صوفياً إلى معشوق يقدر سونه ليس لصلة القربى التي تربطه بالرسول محمد حسب، بل لأنه - كما يعبرون - أعظم نائر ضد الظلم في تاريخ البشرية، وقد سمعت من كثيرين منهم أن إقامة مراسيم أي زيارة أو عزاء رمزي للحسين أيام حكم الرئيس السابق صدام حسين كانت تُعرض أصحابها إلى الملاحقة والاعتقال، وكان عليهم إما أن يارسوها سراً، أو أن السياط والعقاب الحكومي يكونان بانتظارهم، ويبدو أن التأريخ يعيد نفسه بصيغة أخرى هنا! وسأنقل هنا فقرة كتبتها في ذكرى أربعينية الحسين عام ٢٠٠٤.

١٠ أبريل ٢٠٠٤م (أربعينية الحسين)

وسط عاصفة ترابية لم أشهد لها مثيلاً في حياتي، عسكرتُ على الطريق الرابط بين كربلاء والنجف، ولم يكد يمر أكثر من ساعة حتى اصطبغتُ سحتي الشقراء بلون طيني، حتى أهداب عينيّ أصبحت بلون التراب، ولم أهدر مزيداً من الوقت في هذا الجوّ العاصف، فقد هياتُ كاميرتي وجهاز التسجيل بانتظار أن أظفر بأيّ مجموعة من الزوار، وفعلاً بدأتُ أشاهد مجموعات صغيرة تتحرك، ولم يكن صعباً عليّ تمييزهم، ففي مثل هذا اليوم العاصف حين يشاهد المرء تحرك مجموعات من البشر، فرادى ومثنى وأحياناً أسرة بكاملها وهم يحملون حقائب صغيرة أو أكياس فيها بضعة أغراض، فلن يكون ذلك من أجل التسوق حتماً، بل من أجل أعز الغايات وأهمها لهم، ألا وهي «النصرة» وهي في رأيي تعويض عن الخذلان التاريخي الذي تعرضت له ثورة الحسين من جمهور واسع من أنصارها في حينه كنت قد نسقتُ سلفاً عبر مترجمي الفلسطيني مع بعض الوجهاء وقوات الأمن لتسهيل إجراء اللقاءات، استوقفت رجلاً ومعه شاب كانا يحملان حقيبة صغيرة، لعلها زوادة تضم بعض الطعام الذي سيحتاجانه حتماً في الطريق، تحدث معها المترجم، ورأيت الرجل يومئ برأسه بالموافقة، فدنوت منه وقلت له:

أنا بيتر بيشوي، وأسمّي نفسي اختصاراً «بي بي» أنا صحفي وكاتب من إيطاليا،
فهل تسمح لي بإجراء هذا اللقاء معك؟

نعم تفضل لا مانع لدي.

هل لك أن تفضل بإعطائي اسمك وعمرك ومهنتك وحالتك الاجتماعية،
معلوماتك الشخصية هذه ستظل طي الكتمان، نحن نحتاجها لأغراض التوثيق
العلمي والمهني فقط، فإذا كنت لا تفضل نشر اسمك وصورتك وأية معلومات
أخرى عنك، فنحن نحترم ذلك، وسنستعيز عن اسمك أما بالحروف الأولى أو
باسم مستعار، الأمر متروك لك.

أنا يونس جاسم محمد، أعمل مدير مدرسة في منطقة خزنة، وطبعاً لا أفضل
الآن نشر أية معلومات عني ولا صورتي، ليس خوفاً على نفسي، ولكن على ما تبقى
من أسرتي، وأرجو أن تسرع في طرح الأسئلة لأننا في عجلة من أمرنا.

إلى أين تتوجهان؟ ولماذا؟

إلى مقام الإمام الحسين عليه السلام لأداء مراسيم الزيارة الأربعينية.

كيف وصلتما من الموصل إلى كربلاء؟

إلتفنا على مدن ومناطق بعيدة ووصلنا بتوفيق من الله، وإلا فإن الطريق المباشر
شديد الخطورة.

هل سمعت أن أحداً جرّب القدوم في الطريق المباشر وقُتل أو عاد أدراجه؟
نعم، لقد فقدتُ ولدي وابنَ أختي العام الماضي، كانا ذاهبين إلى كربلاء في
زيارة الأربعين التي حلت بعد سقوط النظام بأسبوعين تقريباً، فأمسك بهما إرهابيو

القاعدة في ناحية الدوز (تازة خورماتو) وأظهروا لها صوراً من مناسبات سابقة تظهرهما في مرقد الأئمة في كربلاء، وقالوا لها أنتما شيعيان كافران وقتلوهما، ولم يكتفوا بذلك بل وضعوا جثتيهما في عجلة مفخخة وفجروها، ولم نحصل من جثتيهما إلا على أشلاء ممزقة.

ولم يتمالك نفسه فبكى بحرقة، قلت له مرتباً على كتفه:

أنا آسف لأنني ذكرك بأحزانك، أرجو أن تتقبل مني أحر مشاعر العزاء، إنها الآن في مكان أفضل، وأتمنى أن تتمكن القوات العراقية من اعتقال من قتلوهما.

أجابني بصوت متهدج وهو يخرج من جيبه منديلاً ليمسح دموعه:

أرجو ذلك، أرجو ذلك.

قلت له حين لاحظت أنه هداً قليلاً:

من أين حصل عناصر القاعدة على صور ولدك وابن أختك؟

كثيراً من الإرهابيين العراقيين هم ضباط سابقون موالون لصدام، أو بعثيون أو كانوا عناصر من ميليشيا فدائيي صدام الإجرامية، وهؤلاء حتماً لديهم ملفات الأمن والمخابرات وكل المعلومات عننا وعن إنتائنا وعقيدتنا.

إتفتتُ إلى الشاب الذي برفقته، وسألته:

أأنت ولده؟ ما اسمك؟

نعم، اسمي ذو الفقار؟

هل تدرس في جامعة ما؟

كان يفترض أن أكون الآن طالباً في المرحلة الثالثة من كلية التربية بجامعة الموصل، لكن حين بدأوا بقتل زملائي لأنهم من الشيعة، تركت الدراسة ونجوت بجلدي.

كيف يميزون الشيعي من غيره؟

من الاسم أحياناً أو من لقب العشيرة أو من منطقة السكنى.

أفكر الآن قبل أن أطفى ضوء المصباح لأنام؛ أي أناس هؤلاء؟ وآية عقيدة تلك التي تجعلهم يتحدثون الموت بهذه الشجاعة النادرة؟ عزلاً إلا من إيمانهم وعشقهم لمنهج اختطه إمامهم الأكثر إجلالاً علي بن أبي طالب وأبناؤه من بعده في العدالة والحرية والمساواة! يموتون مظلومين لا ظالمين، كأنهم يستمدون العزم والقوة من أولئك الأئمة القادة، ويستلهمون منهم تلك الحكمة الربانية الهادئة المسالمة، قرأت في بعض كتبهم أن الحسين وسط الأهوال التي كابدها في تلك المعركة غير المتكافئة عسكرياً، بكى على أعدائه شفقة بهم، أليست هذه هي نفسها تعاليم السيد المسيح حين قال: «أَحْبَبُوا أَعْدَاءَكُمْ، بَارِكُوا لِأَعْيُنِكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِكُمْ، وَصَلُّوا لِأَجْلِ الَّذِينَ يُسَيِّئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ».

٤ يونيو ٢٠١٤م

اتصل بي المختار صباح اليوم، وأخبرني أن حزاماً ناسفاً انفجر على مجموعة من الأهالي في إحدى قرى الشبك التي تبعد بضعة كيلومترات شمالاً، والضحايا يعدون بالعشرات.

يا إلهي، إنها مأساة جديدة، هل يمكننا الذهاب إلى هناك وهل الطريق آمن؟

في البداية تردد المختار قليلاً، ثم بدا أنه حسم أمره:

في مثل هذه العاصفة ومدى الرؤية الضئيل، يبدو الأمر غير مضمون، لكننا نستطيع الوصول إلى هناك مع بعض الرفقة من الجيش.

عندما وصلنا إلى هناك كانت آثار التفجير بادية على المنازل القريبة، فبيوت هذه القرى مبنية من اللبن والخشب والحجارة، وكان بعضها منهاراً كلياً وبعضها الآخر متضرراً، أما موقع الانفجار فالدماء تغطيه على مساحة واسعة من الأرض، وقد اختلطت حمرة السماء مع حمرة الأرض، حتى ليُخيل للمرء أن الدماء أصبحت هواءً ودخاناً يغمر الأرض في مشهد مرعب من مشاهد يوم الدينونة، كانت القوات

الأمنية وسيارات الإسعاف قد أخلت القتلى والجرحى، وبقي بعض الأهالي المنكوبين ينوحون على أبنائهم وبناتهم، رأيت عجوزاً تهيل التراب على رأسها، فقلت لمردان: تحرّلي أمر هذه السيدة، فسأل أناساً يقفون قريباً وعاد إليّ قائلاً:
لقد فقدت أبنائها الثلاثة وحفيدتها الصغيرة في الانفجار.

يا إلهي، أشعر بالعجز وقلة الحيلة أمام مثل هذه الفواجع التي لا أجد لها مبرراً مقنعاً! إن الحروب التقليدية تحاول جاهدة أن تتجنب المدنيين، أما هذه الحرب فإنها تتعمد قتلهم في أماكن عيشهم لا في ساحات المعارك، ولكن مهما بلغت أي حرب من البشاعة، فلا ينبغي لها أن تسلب الناس المسالمين حياتهم، وأن تفجع الأمهات بهذه الطريقة المفرطة القسوة.

اقتربت من ضابط في الجيش كان يقود القوة التي طوّقت المكان عقب الحادث، قدّمتُ نفسي له عبر المترجم وسألته:

ماذا كان يوجد هنا قبل التفجير؟

كان هنا سوق يقصده الناس للتسوق اليومي، فجاءهم انغماسي وفجر نفسه وسطهم.

وهل توجد إحصائية عن أعداد الضحايا؟

ما تزال الأرقام غير دقيقة، لقد أخلينا على الفور جثث القتلى - وبعضها متفحم - وكان عددها تسعة وخمسين جثة، أما الجرحى فأعدادهم بالمئات، وبعضهم جراحه خطيرة، أي أن عدد القتلى مرشحٌ للزيادة، وربما هناك ضحايا آخرون تحت

أنقاض البيوت لن نستطيع الوصول إليهم ما لم يصل الجهد الهندسي لرفع الأنقاض.
سألته عن السبب الذي جعل التفجير مهولاً هكذا، فالجزام الناسف يكون عادةً أقل ضرراً من السيارة المفخخة أو العبوات المتفجرة؟ فأجابني:

يبدو أن الإرهابي قد حمّل نفسه كمية كبيرة من مادة ال C4 الشديدة الانفجار،
أما سبب الإصابات الكثيرة، فلأن الإرهابيين - لتحقيق مزيد من التأثير القاتل -
يضيفون إلى عبواتهم مئات المسامير أو «الصجم» وهي الكرات الفولاذية المستخدمة
في تسهيل حركة العجلات.

إلتقطت صوراً بكاميرتي لموقع الحادث ولبقعة الدماء الضخمة وبقايا الأشلاء
المتفحمة، وللبیوت المتهدمة، واستأذنتهم في إلتقاط صور للعجوز النائحة ولنساء
ورجال آخرين كان يبدو عليهم الحزن الشديد لفقدان أحبّتهم.

حاولت أن أجد مَنْ يستطيع أن يتحدث لي من أهالي القرية، قلت للمختار
رشح لي من يحدثني عن معاناتهم هنا مع الإرهاب، وكيف تستمر حياتهم وسط هذه
الكراهية والعنف الوحشي؟ فنادى على أحد الصبيان:

قل للحاج محمود شكر أن يأتي للحديث مع السيد بيشوي.

حاضر.

بعد قليل جاءني رجل ذو لحية كثة وسحنة يبدو عليها الوجوم الشديد، يرتدي
«صاية» عربية وكوفية مشبكة تشبه كوفيات أهل الجنوب يلفها مثل العمامة، كانت
ثيابه رثة قليلاً، بادرتة محيياً إياه باللغة العربية لكن «بلكتتي الخاصة»:

السلام أليكم هجّي .

رحب بي بصوت خافت، وسحب نفساً عميقاً من سيجارته:

عليكم السلام ورحمة الله .

يؤسفني ما حدث لقريتكم، صادق التعازي والمواساة لكم ولعائلات الضحايا،

هل يمكنك أن تخبرني ماذا حدث هنا؟

تأمل في وجهي برهة وأطرق إلى الأرض كأنه يبحث عن شيء ضاع منه، ثم

تحدث بصوته الخفيض المحزون:

كان السوق في أوج ازدحامه، وفجأة اقترب رجل غريب ليس من القرية،

تظاهر كأنه يريد أن يتسوق، وحين توسط السوق وأيقن أنه صار في منتصف الجمع

فجّر نفسه وقتل الناس كما ترى .

هل بين الضحايا أناس من أقاربك؟

كل الذين ماتوا أو جرحوا هم أقاربي، نحن قرية صغيرة، وكلنا أولاد عم أو

خال أو أنسباء أو أصهار .

عدنا إلى قرية الخزنة التي فيها إقامتي المؤقتة لهذين اليومين، وقد هيمن عليّ

شعور شديد بالقنوط والغمّ، دخلتُ إلى غرفتي الصغيرة التي خصصها لي أمر الفوج

المكلف بحماية تلك المنطقة في أحد المنازل التي يسيطر عليها الجيش، وجلستُ على

سريري وبكيت، وتخيّلْتُ لو أن الأبناء الثلاثة الذين فقدتهم العجوز، هم أبنائي

الثلاثة أندرو وسانتو وجوليان، يا للهول، كنتُ سأجنّ طبعاً، لكن لماذا يأخذ

الوضع في هذه البلاد هذا المنحى الدموي؟ ألم يكتفوا من الموت والدماء؟ لقد خاض

العراقيون حربين في أقل من عشر سنوات، ثم حصاراً عاد بالبلاد عشرات السنين إلى الوراء وأخذ ما أخذ من أرواحهم وأقواتهم وأعمارهم، وجاءت الحرب الأخيرة لتجعل الناس كالهاريين من الجحيم إلى الجحيم نفسه.

بدأ المطر يعزف موسيقاه الحزينة التي تشبه قرع طبول الحداد، فكانت قطراته تنقر السقف المصنوع من ألواح معدنية، أطلت من الشباك، وكان الجو ما زال شديداً الحمرة بفعل العاصفة الترابية، وكما لو أن السماء كانت تبكي الضحايا، وتشارك الناس فجيعتهم، صنعت قطرات المطر دموعاً من الدم الترابي اللزج على زجاج النافذة.

مع العبارة الأخيرة التي قرأتها نهلة، كانت دموعها تتسابق على خديها عليها تطفئ بعض غليلها المشتعل مما عانت ومما قرأت، وكانت الطائرة قد بدأت تتباطأ تمهيداً للهبوط، وكانت الأم التي تجلس خلفها تحاول تنويم طفلها فكانت تردد له بصوتٍ شجي تنويبات غاية في الحزن، ففاقم ذلك أشجان نهلة التي علا صوت نحيبها، والتحقق بها العجوز صبيحة ثم العجوز الأخرى فإذا عدوى البكاء تنتقل كالنار في الهشيم بين هؤلاء المطرودين من أحضان بيوتهم، الفارين من الموت إلى التشرذم والنزوح، لقد تذكر كل إنسان أعباءه الذين فقدهم أو الذين تركهم هناك وليس من أمل في أن يلقاهم مرة أخرى.

ما تزال في الدفتر بضع ملاحظات أخر يبدو أنه كتبها في تلعفر، لكن الطائرة كانت قد حطت في مطار بغداد وشرع الناس يتململون استعداداً للنزول، كفكفت نهلة دموعها، وأعدت الدفتر إلى حقيبتها، واستعدت لرحلة طويلة من الصراع

والانتصارات والخيبات في وطن تتقاذفه رياح الأطماع من كلِّ جانب، لقد دفع الناس هنا وفي مدن أخرى ضريبة الدم مضاعفة، فلماذا عليهم دائماً أن يكونوا دريئة الوطن، بينما آخرون ممن أدخلوا إلى البلاد كل فايروسات الإرهاب وطفيلياته يبتلعون الوطن من أقصاه إلى أقصاه ويتمطقون! من يعوّض النازحين الذين سُردوا من بيوتهم عن كل لحظة مرة تجرعوها، ولمن ستؤول أكاليل النصر حين يبذل المقاوم دمه وروحه، فيأتي سياسيو الموت وتجار الحروب وملوك الطوائف ليحصدوا ثمار دمه؟

الليلة الأخيرة في معسكر الطف

قبيل الغروب تناول الحاج حسين كسرة خبز مع علبة سمك سردين، متوقفاً ليلة ليلاء طويلة قد تطول إلى الأبد، كانت إذاعة الـ BBC تبث أخباراً مستمرة عن احتلال داعش لأجزاء واسعة من العراق، شملت محافظات المنطقة الغربية الثلاث؛ الموصل والأنبار وصلاح الدين، وتتابع في تغطيات خبرية مستمرة تقدمها غرباً صوب تلعفر وسنجار، تأمل الحاج حسين الشفق البرتقالي الضارب إلى الحمرة الذي ضرج الأفق بعد اختفاء قرص الشمس، بدا له مثل جرح كبير فاغر، ينز من جوانبه دمٌ عبيط، قال وهو يتناول إبريق ماء قريباً منه ليتوضأ: كأنها دماء أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

توضأ مسبغاً الماء على روجه لا على أطرافه فقط، لكنّه بعد تلك اللحظة شهّد وشاهد شيئاً لم يكن مناماً ولا حلم يقظة قط، بل كان حقيقة ناصعة، فكأنها طويت له الأرض، وطوي له التاريخ أيضاً فوجد نفسه في معسكر الحسين عليه السلام ليلة العاشر من المحرم الحرام سنة ٦١ هجرية، شاهد خيام المعسكر الصغير ونيرانها القليلة، محاطة بالآلاف المشاعل والنيران التي أوقدها جيش ابن زياد على الجانب الآخر، سمع الإمام

الحسين عليه السلام ينادي أصحابه: هذا الليل قد غَشِيَكُمْ فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجلٍ منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي، وتفرّقوا في سواد هذا الليل، وذروني وهؤلاء القوم، فإنهم لا يريدون غيري، وسمع إخوته وأبناءه وأبناء عبد الله بن جعفر وأصحابه يجيبونه: ولم نفعَل ذلك؟ ألنَبِيَّ بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً، ثم سمعهم يحاجّونه في ذلك قائلين: يا ابن رسول الله فما يقول لنا الناس وماذا نقول لهم؟ نقول إنا تركنا شيخنا وكبيرنا وابن بنت نبيّنا لم نرمِ معه بسهم، ولم نطعن معه برمح، ولم نضرب معه بسيف، لا والله يا ابن رسول الله لا نفارقك أبداً، ولكن نقيك بأنفسنا حتى نُقتل بين يديك ونردّ موردك، فقبّح الله العيش بعدك، اغرورقت عينا الحاج حسين بالدموع، وقال لنفسه: هذا هو مصداق قولنا كلما حلت أيام عاشوراء «يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً» فوالله إنه للفوز العظيم، وإنها لطفٌ جديدة سننصر فيها الحسين ونفديه بأرواحنا، ثم فرش سجادته وصلّى العشاءين وقد غمره شلال هادر من السكينة واليقين.

كانت أصوات الرصاص والقذائف تلعلع في كل مكان، خمن الحاج أنها ليلة هريّر ستتكرس فيها النصال على النصال، ولن يطلع لها فجرٌ حتى يكون هؤلاء البهائم قد أحاطوا بالحلي تماماً كما يغزو الجرادُ حقول القمح، جمع عتاده وسلاحه قربه، فكان بين يديه بندقيتا كلاشينكوف مع أربعة شواجير وبضع مئات من الطلقات، ومسدس بيرته إيطالي الصنع عيار ٩ ملم مع خمس علب رصاص، وثلاث رمانات يدوية هجومية، أما مؤونته، فما يزال لديه بعض الخبز ومعلبات فول وحمص وسمك سردين وعلبة دبس.

وقع انفجار وتصاعد دخان وأتربة من أحد المنازل في نهاية الزقاق الذي يطل عليه برجه، كان الانفجار ناجماً عن قذيفة هاون أطلقها الدواعش، ومن عادتهم إحراق الأرض بالقصف المدفعي قبل الدخول إليها، وأعقب الانفجار صليات من الرصاص في اتجاهات متفرقة.

من أحد السطوح المجاورة كان الأخوان زين العابدين (زينل) ومحمد رضا يتابعان التطورات، ناداه زين العابدين:

حجي حسين، سيدخلون من هذا الاتجاه، وأشار بيده إلى نهاية الزقاق حيث وقعت قذيفة الهاون.

إنتهوا لهم جيداً يا أبطال، الله يحميكم وينصركم.

بعد أقل من نصف ساعة تساقطت صلية قذائف هاون متفرقة على سطوح المنازل أو وسط الأزقة، وكان معنى ذلك أن دخولهم بات وشيكاً، وحين بدأ الرصاص المذنب ينطلق من ذلك الاتجاه صوب الحي ومنازله، بدأت المعركة الفعلية، احتضن أبو نهلة بندقيته ورفع رأسه إلى السماء قائلاً:

بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، اللهم ألحقنا بركب الحسين مقبلين غير مدبرين، ثابتين على نهجهم لا نحيد عنه قيد أنملة، اللهم انصرنا على القوم الكافرين.

وشرع يطلق النار صوب الأماكن التي يأتي منها الرصاص المذنب، ولما رآه زينل ومحمد قد بدأ قتاله، شرعا هما أيضاً بإطلاق الرصاص، وهكذا بقية السطوح، لكن القصف المدفعي صار أكثر كثافة، سقطت قذيفة في حديقة منزله وهدمت

جزءاً من سياجه الخارجي، فتضعع برج مراقبته وسقطت بعض ألواح الجينكو التي صنع منها سقيفة تقيه الشمس في النهار، لكنه لم يهتز، هَرَعَ زين العابدين وأحد الشباب الآخرين الذين كانوا بجواره عبر الأسطح حتى وصلا إليه:

عمي حسين أنت بخير؟

فداكم عمكم، نعم الحمد لله.

وأطلق بضع رصاصات، ثم إلتفت إليهما موصياً إياهما:

يا شباب اقتصدوا بالرصاص، وفي الوقت الراهن ضعوا سهامات البنادق على الرمي المفرد، لا ندرى كم ستطول المعركة، أما إذا حدث إلتحام، فعودوا إلى الصلي، والله هو الناصر والمعين، بلِّغوا الشباب الآخرين كلهم بهذا الكلام.

استمر القتال طوال تلك الليلة، استخدم الدواعش السيارات المفخخة المدرعة، تلك التي لا يمكن للمقاومين أن يفجروها لأنها مزودة من مقدمتها وجوانبها بصفائح حديدية سميكة تمنع اختراقها بالرصاص وحتى بقذائف ال-RBG، استهدفت واحدة منها منزلاً فارغاً مجاوراً لمنزل علي أصغر فتم ايل برج الاتصالات الذي كان مثبتاً على سطحه، فانحنى قليلاً لكنه لم يسقط، ولم يكن واضحاً هل سقطت النخلة التي كانت تناهزه طولاً أو احترقت، لكن بات في حكم اليقين أن علي أصغر وولده الشاب عبد الله قد اسشهدا أو جرحا، فقد كان تفجيراً مهولاً بعشرات الكيلوغرامات من مادة ال C4 الشديدة الانفجار.

قراءة الساعة الثالثة فجراً استشهد محمد رضا وسُمع زين العابدين وهو يكبر

ويصرخ:

الله أكبر، الله أكبر، استشهد أخي محمد رضا، اللعنة على قتلة الحسين، اللعنة على
أحفادهم الدواعش، اللهم تقبل منّا هذا القربان.

فردد الحاج حسين في يقين:

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم تقبل منّا هذا القربان.

كان الدواعش مزودين بمناظير رؤية ليلية، ولذلك كانوا يتحركون بسهولة
ويتسللون قريباً من متاريس المقاومين، لكن عند إطلاقهم النيران كانت أماكنهم
تكشف مؤقتاً جراء الومض، فيستثمر الحاج حسين ورهطه تلك اللحظات
فيطلقون على المكان الذي خرجت منه النيران، وهكذا أوقعوا في الدواعش خسائر
ليست بالقليلة، لكنهم كانوا يتهاوون كالنجوم في السحر، واحداً بعد الآخر.

عندما أصبح الصباح، كانت شوارع تلعفر ملاءى بالحطام وبأشلاء كثيرة من
الدواعش، بينما كان كل الرجال المقاومين الذين سهروا الليل يتجهدون مع الحسين
ويذبون عن حُرمة ويدافعون عن مبادئ ثورته قد قضوا شهداء، كانت إصابات
معظمهم في الرأس برصاصة قناص، وكانت دماؤهم قد ضمّخت أسلحتهم وثيابهم
وسطوح منازلهم ونهار المدينة كله بعطر غريب حزين، وانتشرت حول جثامينهم مئات
ظروف الرصاص الفارغة، وتكشّف النهار عن مشهد النخلة وقد احترق سعفها
الخارجي كله وتساقط رماداً، لكن القلب الأخضر الذي يكتنز الحياة نجاً بمعجزة،
بينما كان برج الاتصالات ذاك مائلاً على السطوح المجاورة بزواوية حادة، حتى كأنها
- جذع النخلة والبرج - وسطى وسبابة افترقا في علامة نصر عنيدة ومكابرة، وكان
العلم العراقي ما يزال معتدل القامة يرفرف فوق البرج المائل.

الفجر ٢٠١٧م

غرقت الموصل ومعها تلعفر ومحافظات عراقية أُخر في ظلام دامس ثلاث سنوات، حلت نهاراتٌ وليالٍ في أماكن أخرى من العالم، وأنبتت الأرض زروعاً جديدة، وولدت الأمهات أطفالاً آخرين، تغيرت وجهاتُ الرياح آلاف المرات وسافر الغيم الى قارات وجزر، وأكل الناس وشربوا وعاشوا وماتوا، بينما ركد الزمن في دولة الظلام التي استوطنت الجزء الغربي من العراق كمستنقع كبير آسن، وانقسم من بقي من السكان تحت سلطة الدواعش إلى فريقين، فريقٍ رضي بهم وتماهى معهم وأيدهم، وفريق وجد نفسه تحت سطوتهم مُكرهاً بلا حول ولا قوة، أمّا هم فلم يدخروا جهداً في تنفير الناس منهم، حتى مؤيديهم، فقد فرضوا النقاب على النساء وعاقبوا المرأة التي تسير من دون محرم ومنعوا التدخين وجلدوا الناس في الساحات العامة وقطعوا الأيدي والرؤوس لأسباب تافهة، وأحياناً لرغبتهم في الإذلال والتنكيل، أما خارج مناطق سيطرتهم فقد اكتظت المدن بالنازحين الذين نجوا بحياتهم من المذابح، كثيرون جاؤوا إلى بغداد ومنها إلى كربلاء والنجف حيث احتضنتهم العتبات المقدسة في مدن الزائرين ورحب بهم أهالي تلك المحافظات بصرف النظر عن أي اعتبار ديني أو مذهبي، وآخرون اتجهوا شمالاً فأقيمت لهم

مخيمات في مخمور والحازر وغيرها، وكانت بغداد وكل محافظات الجنوب على بعد لحظات من الاجتياح، فقد تركز الدواعش في قرية الزيدان في قضاء أبي غريب وهي لا تبعد عن مراكز القيادة والسيطرة في بغداد سوى بضعة عشرات من الكيلومترات، كانوا يتهيئون للانقضاض، وكان الناس يتهيأون للمواجهة لكن بلا قيادة واضحة أو تنظيم، ولم يكونوا واثقين من شيء، ولا يعرفون عدد الدواعش الفعلي ولا نوع تسليحهم ولا كيفية ردعهم وسط المدن والتجمعات السكانية لو حدث واجتاحوا بغداد، وبدت الحكومة عاجزة عن إعادة ترتيب أوراقها وتنظيم قطعات جيشها المنهار، في تكريت حصلت مجزرة مدوية، فقد احتجزت العشائر الموالية لصدام والبعثيون ومسلحو داعش طلبة كلية القوة الجوية الخارجين من قاعدة سبايكر، واحتجزوا معهم كل العسكريين العائدين من وحداتهم في الشمال، وكذلك سجناء سجن بادوش في الموصل، وجرى فرز السنة واستثنأوهم من القتل، أما الشيعة فقد أعدموا في مشاهد مروعة سجلها الدواعش وبثوها على مواقعهم وتناقلتها القنوات الفضائية، قرابة عشرة آلاف رجل قُتلوا بلا رحمة في مشاهد تقشعر لها الأبدان، صُفِّق لها كثيرون وعدّوها «نصرهم المبين» وسكت آخرون لأنهم معها بقلوبهم ولا يريدون الإفصاح عن حقيقة موقفهم وإن كان السكوت نفسه موقفاً فهو رضى وتأييد وتصفيق داخلي، أما الرافضون فكانوا قلة وكان موقفهم رغم شجاعته يبدو خجولاً وسط زخم «الجبور» الذي أبدته قنوات فضائية وشخصيات سياسية، سرّاً أو علانية، وكانت الأحداث قد تلاحقت وتسارعت كثيراً، ثم في يوم الثالث عشر من حزيران ٢٠١٤ انطلقت فتوى السيد السيستاني بالجهاد الكفائي، فإذا بالجموع تحتشد على بوابات معسكرات الجيش في بغداد والمحافظات، كان الشباب يتزاحمون

كأنهم ذاهبون إلى الجنة، عزلاً إلا من ذلك الإيهام العميق بالله والوطن، وإذا بالعزيمة تدب في أوصال البلاد، كأن كل أدرينالين العالم قد سرى في عروق المدن الشائخة من فرط الحروب والمآسي، في تلك اللحظة الفارقة من عمر العراق وما حوله من البلاد ولد الحشد الشعبي، فولدت معه معادلة جديدة، تغيرت معها المواقف، وزالت فكرة الانهيار الوشيك من أذهان الناس، خرج الحشديون وهم يضعون أرواحهم على أكفهم لا يلوون على شيء، تاركين خلفهم عيالهم وأمهاتهم وكل ما يحبون، ميممين شطر المدن اللواتي أصبحن في قبضة الموت والإرهاب والضغينة، كان عباس فاضل من بين عشرات الآلاف من الشباب الذين انخرطوا في صفوف الحشد، قبل أن تنتهي إجازته القصيرة خرج عباس من منزل أهله في الحبيبية وليس معه إلا هاتفه ومحفظه تحتوي على بعض المال الذي يكفيه لأجرة الطريق فقط، كمن يقطع تذكرة ذهاب بلا عودة، وكان هناك معه في الفصيل نفسه ابن عمته علي ياسين، قاتلا مدة من الزمن في تكريت ثم تحركت وحدتهما إلى الموصل، وهناك قاتلا مع رفاقهما الآخرين ببسالة منقطعة النظر، وفي أواخر أيام آب كانوا يخوضون معركة تحرير ما بقي من تلعفر من أحياء العسكري وحي الصناعة الشمالية ومنطقة المعارض وبوابة تلعفر وقرية الرحمة، ثم اقتحموا ناحية العياضية وحرروا قرى العلولية وخويتله وكصير والهارونية والفقة وقبك وحقول الدواجن والصاجعة والتمارات ومعسكر الكسك وتل محمد والوائلية ومعمل غاز تلعفر وقلعة الحدود ومعمل جص تلعفر والبشار والنخوة شرق العياضية، وقرى إبراهيم وتل واشي وتل ميرام وتل مضر غرب العياضية، وفتحوا طريق الكسك باتجاه تلعفر، وأثناء تحرير حي المعلمين الذي كانت نهلة وأسرتها تقطنه، واستشهد فيه والدها الحاج حسين، تسللت باتجاههم سيارة

مصفحة مفخخة، كان سلاح عباس رشاشة متوسطة نوع BKC بينما كان سلاح علي بندقية كلاشينكوف خفيفة، استمر عباس وعلي يطلقان النار عليها قبل أن تصل إليهما وإلى رفاقهما، لكنها لم تتأثر لقوة الدرع المضاف إليها، وعندما أيقن علي أن رصاصهما لن يجدي نفعاً في تفجيرها قال لعباس خذ ساتراً لكنه لم يفعل، واستمرا يطلقان الرصاص، حتى اقتربت إلى مسافة عشرين متراً وتفجرت أخيراً، وقبل ثوانٍ من انفجارها ارتمى علي وراء ساتر ترابي، بينما بقي عباس في مواجهتها كلياً فاستشهد على الفور، وأصيب علي بجراح بليغة في خاصرته وأضلعه، حينما انتهى التحرير وسيطر الحشد والجيش على الأرض، وجدوا في معسكر الكسك بناية كان الدواعش قد اتخذوها سجنًا، وعثروا فيها على جثث حديثة العهد بالموت، أظهر الفحص الطبي أنهم قتلوا منذ يومين على الأرجح، يبدو أن الدواعش حين حوصروا قرروا قتلهم، وعُثر فيها على جثة الصحفي لإيطالي بيتر بيشوي ومعه الصينيان وتحسين بيات وثلاثة وعشرين شخصاً آخرين، كلهم قتلوا بإطلاقات في الرأس والصدر.

مقبرة الشهداء ٢٠٢٢م

كان الصباح غائماً قليلاً، إنها أواخر آب التي تفتح للشتاء باباً كما يقولون، إذ يصبح النهار متقلب المزاج مثل عاشق مهدور، تشرق الشمس كعادتها في الصيف، غاضبة ومتجهمه منذ الصباح، لكن غيباً مفاجئاً يفسد عليها برنامجها اليومي في الطهي البطيء الهادئ لمدن الله العالقة في هذه الجغرافيا المنكودة، فتحتجب الخاتون خلف غلالة الغيم قليلاً، ويتنفس كل ما يقع تحت طبقة الأوزون الصعداء ويزفرون هواء أقل سخونة من المعتاد.

استيقظت نهلة باكراً في ذلك الصباح، نظرت خلال النافذة كأنها تتفقد الحياة في المدينة، تسللت نسمة هواء منعشة من نافذة نصف مشرعة في غرفة نومها، ثم إلتفتت إلى التقويم الهجري والميلادي المعلق على الجدار فقرأت تاريخ: ٣١ / آب / ٢٠٢٢ وتحتته بالهجري: الرابع من صفر سنة ١٤٤٤هـ وقد أحيط بدائرة بالحبر الجاف الأحمر، إنه اليوم الموعود من كل عام، إذ تحمل ذكرى تحرير تلعفر من أيدي داعش، بحثت في هاتفها عن تلاوات القرآن الكريم، وشغلت تلاوة لأبي العينين الشعيشع من سورتي النجم والقمر بصوت مرتفع، وغادرت غرفتها، فبدأ صوته الشجي يجلو

الحزن الذي أرهق القلوب، والصدأ والغبار عن الأمكنة والأشياء.

وبسبب الجلبة التي أحدثتها في البيت كله وفي المطبخ، استيقظت أمينة وعاصم وناظم متثاقلين، لكنهم صحصحوا بعد ذلك، وبدأوا بالاستعداد لرحلتهم القصيرة تلك، أفطروا سريعاً، ثم إرتدوا ثيابهم وحملوا الحقائب الصغار التي أعدوها منذ أمس، هتفت بهم نهلة من المطبخ:

تأكدوا من أخذ كل الأشياء الضرورية، ولا تنسوا المصحف والزهور.

لم ننسَ شيئاً إطمئني.

بعد قليل كانوا جميعاً جاهزين، انطلقت بهم نهلة بسيارتها، وكان الصبح قد أسفر عن نهار صديق، وعبر غيوم الصيف رسمت الأشعة الهاربة من الأطراف ومن الثغرات بين غيمة وأخرى شلالات من خطوط مضيئة مستقيمة، إرتقى الفتيان محمد ومصطفى على المقاعد الخلفية بجفون نصف مغمضة، وظلت أمينة تُحدق في البيوت والشوارع، وكانت آثار تلك الحرب ما تزال ماثلة، فكثير من المنازل مدمرة، وبعضها هدم الرصاص والقذائف شيئاً من أسيجتها أو سقوفها، ومع ذلك فقد عادت الحياة هناك، والناس عادوا إلى مألوف عيشهم وأعمالهم، ثمة عمال بناء في أكثر من مكان يرمون بيتاً هنا أو يعيدون بناء مدرسة هناك، وكان رجال ونساء يخرجون كلُّ إلى شأنه، إلى أعمالهم أو إلى الأسواق أو المشافي، ثمة حياة تستعيد عافيتها، وبراعم تستعد لتجديد دورة الخصب في الطبيعة، مرّوا قرب منزل الشهيد علي أصغر، وقد أعاد أحد أقاربه الميسورين بناءه، وعادت زوجه وبناته الكبريات وولده الأصغر أمير ليعيشوا فيه، واستعادت برحمة جاره «العيطة» نضارتها وأنبتت سعفاً جديداً من ذلك القلب

الذي صمد ونجا من التفجير، أما برج الاتصالات الذي على السطح فقد استقام من جديد، واكتسب العلم العراقي المرفوع فوقه مزيداً من الارتفاع، لم يكن الطريق طويلاً، إذ سرعان ما وصلوا إلى مقبرة تلعفر حيث يتوسط القبر الرمزي لوالدهم الحاج حسين الهبائي قبور شهداء ليلة الطف الأخيرة، والشهداء الذين حملتهم الشهامة والغيرة فجاؤوا من مدن جنوب القلب المتربة ومن قرى تغفو على شطوط الحزن والفاقة، من بيوت صفيح لا تكاد تقي من حر أو برد، ومن أسر أغناها الله بالقناعة فرضيت باليسير من أسباب العيش، جاء هؤلاء القديسون فقطعوا تذاكر الـ (ONE WAY) التي بلا عودة، فسالت أرواحهم على أرض تلعفر، وصار المرء يراهم في كل رغيف خبز، وفي كل بهجة ولادة جديدة، في كل قرميدة تُبنى، وفي كل ضفيرة لطفلة تتوجه إلى مدرستها بخطى واثقة آمنة.

نهلة التي كانت تقود سيارتها ويبدو عليها الانهك والتركيز على الطريق، لم يفتها أن تلاحظ سهوم شقيقتها وهواجسها التي عبرت بها إلى ما هو أبعد من المرئي والمألوف إلى تخوم أقرب إلى التفلسف منها إلى التفكير العادي، فقالت بغير مقدمات: إنهم ها هنا حولنا ومعنا يرعون خطواتنا ويجعلون حياتنا أكثر قيمة، ولن ننساهم.

نزلوا من السيارة وتوجهوا إلى حيث القبر الرمزي لوالدهم الذي لم يعثروا على رفته أبداً، وعلى الرغم من سطوة الموت وتجهمه وحضوره الغامض المخيف في كل مقبرة، إلا أن الأمر هنا بدا مختلفاً، لقد كان المنظر بهيجاً حقاً، فشاهد قبور الشهداء كانت تزدهي بالشموع والشرائط الملونة وورود الزينة الاصطناعية والطبيعية الجافة،

وكانت صورهم تضيء كما قد تفعل مجرة من النجوم المتوهجة، وقد أحيطت رخامات شواهدهم بأسماء الرسول محمد ﷺ وآل بيته الأطهار عليهم السلام، كان بجوار قبر الحاج حسين قبور كل من الحاج حسن زوج ابنة أخيه وزين العابدين (زينل) وشقيقه محمد علي والحاج علي أصغر وولده عبد الله وكل الشهداء الآخرين، وكانت بينهم قبور رمزية لعباس فاضل ولمحمد غياض ولحسين ابن الديوانية وعشرات الشباب الآخرين، وعلى نحو مفاجئ ومبهج، كانت صورة لشخص أشقر ذي سحنة أوروبية تحتل علامة الصليب الجزء الأعلى الأيمن منها، وكُتبت تحتها: (أنا هو القيامة والحياة، مَنْ آمن بي ولو مات مسيحياً)، ثم عبارة: الشهيد السعيد بيتر بيشوي.

٢ أيار - ١ أيلول ٢٠٢٢

انتهت

